دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي

تأليف

د. عبد الرحمن علي الحجي

دراسة الظاهرة العلمية

في المجتمع الأندلسي

تأليف

د. عبد الرحمن الحَجِّي

استاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي

953,071

رح د ر

عبد الرحمن علي الحجي،

دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي / تأليف عبد الرحمن علي الحجي.-

ط 1 .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث؛ المجمع الثقافي، 2007.

183ص

ببليوجرافية: ص 179 - 187.

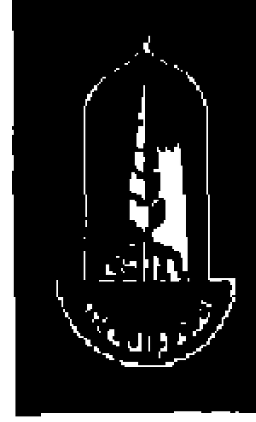
1-الحضارة الإسلامية – الأندلس.

2-العلماء الأندلسيون.

3- الأندلس – تاريخ.

4- الثقافة الإسلامية – الأندلس.

أ- العنوان.



1428 هـ - 2007 م

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380- هاتف: 00971 2 6215300

nlibrary@cultural.org.ae

www.cultural.org.ae



دراسة الظاهرة العلمية
في المجتمع الأندلسي

إهداء

إلىٰ أهل العلم في الأندلس – علماءَ ومتعلمينَ – وغيره ومن كل الشعوب صنعهم المنهج الكريم، كانوا حريصين علىٰ تَلَقّيهِ وبَثِّهِ، بسخاءٍ لا يعرف الحدود.

أَثْرَوْا العلمَ الإنساني وأَغْنَوْا حضارتَه وحققوا إنسانيتَه، إيماناً واحتساباً، بلا كلل أو ملل، إنما بكل أمل. جادت به قرائحهم ودبّجته أقلامُهم وأبدعته ملكاتُهم، جدةً وسبقاً وتأسيساً.

كانوا به رواداً وأفذاذاً ومثالاً، علماً وعملاً، سمتاً وخلقاً، محملاً ورواية وإبداعاً.

حققوا ظواهرَ علميةٍ عجيبة نادرة في الحضارة الفريدة الإنسانية. ليُوَرِّثُوا أُسساً سامقة المباني، قامت عليها وحدَها حضارةُ اليوم، وإن تجنت وتجنبت مقوماتِها.

والأمل اليوم أن يعود لهذه الأمة رونقُها، إذ تَعود لذات المنهج في بناء حياتها الجديدة، بشمولٍ واكتمال واجتهاد، إن شاء الله تعالى.

المحتويات

المنهجية الحقة لدراسة الحياة الإسلامية	7
المقومات العلمية للحضارة الإسلامية	11
القيم العلمية في الحضارة الإسلامية	21
أصالة نتاج الحضارة الإسلامية استكثارا وانتصارا	29
الأصالة العلمية وآفاقها	35
كثرة المؤلفين والمؤلفات	43
غزارة الإنتاج في الحضارة الإسلامية	66
سمت العلماء في الأندلس وعنايتهم بالكتب	83
نشر العلم واحتساب العلماء فيه (صورة أندلسية)	89
الشغف العلمي في الحياة الإسلامية وأصالتها	109
شغف العلماء الأندلسيين بالكتب والعلم ونشرها	114
العناية بالكتب والمكتبات في الأندلس (أوعية العلم في الأندلس ومستلزماته)	127
العناية بجمع الكتب والمكتبات الخاصة في الأندلس	141
عناية الحكام في المكتبات في الأندلس	152
المصادر والمراجع	169
للمؤلف	178

المنهجية الحقة لدراسة الحياة الإسلامية

حين دراسة طبيعة المجتمع المسلم وفهم ظواهره لا بد أن يجري ذلك ضمن منهجية حقة وعلمية أمينة وموضوعية واضحة، لتكون ثمرة الدارس نتاجاً حقيقا بالإسلام، ودقيقاً في مجال العلم وكشفاً مثمراً في الدراسة والبحث. وهذا المستوى يقتضي صاحبه - في تناول المجتمع المسلم وكشف جوانبه الحضارية - صبراً وأمانة وخبرة وثَقْبَ بصيرة وفهماً لطبيعة هذا المجتمع وارتباطه الشامل بالإسلام ومعرفة ثماره، وكذا تذوقه هذه المعاني وإدراك كنهها وإشراقها والإيمان بها. ولا بد من اعتبار أمور قد لا تكون ضرورية أو لا تتوفر لمن يدرس المجتمعات الأخرى، ولو إلى أي حد، فهي ارتباط عضوي مادي سطحي الحركة.

فالحضارة الإسلامية ثمرة لطبيعة المجتمع المسلم ولون بنائه وحقيقة بنيته الاجتماعية والإنسانية الربانية والعلمية التي أقامها الإسلام في ابتناء ذلك المجتمع الكريم فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولة، سواء في داخل ذلك الكيان الإسلامي أو في خارجه وفي كل تصرفاته إلى أغوار بعيدة حركت طاقاته كافة وفجرت قدراته، خيرة فاضلة نامية متسعة متكاثرة متزايدة في كل اتجاه، أودعتها سراً تشهد آثاره وتظل تبحث عن مكنوناتها، وكأنها أضفت جديداً إلى كل ذلك، ورعته في أحوالها كافة وأعلت آفاقها وملكتها سمواً واتساعاً وإشراقاً كان يعيشه ذلك المجتمع شاملاً شامخاً يشهد كل أحد فيندهش به ويقبل عليه ويقتضيه. وعرض تلك الصور الحية اليوم التي تبقى تحتفظ بقوتها على الدوام تبهر بحقائقها المنشورة تمتلك القوة

والجاذبية لأهله وللآخرين متفردة كثيرة المعاني الإنسانية الرفيعة وتحرك بواطنه وتستجلي فطرته ليسير بعيداً عن مثقلات المادية والحياة الآلية والرواسب الأرضية في طريق منير يقود إلى تبني هذه الأشياء وعشقها والعمل بها.

ومهما وجد في إطار التاريخ الإسلامي من شذوذ ـ مهما كان قليلا أو محدودا أو محصورا ـ فلا يعتبر من الإسلام، بجانب أنه رغم توفر بعض أوقات في حياة الحضارة الإسلامية المتطاولة التي احتملت كل أنواع المواجهات وفتنتها، مع ما تملك هذه المواجهات من قوى متكاثرة ومتلونة وأساليب متخيرة ومتحينة وإجراءات لا تعرف خلقا فاضلا أو اعتدالا، تغلبت عليها وظهرت قوية ناصعة متلألئة، الحضارة الإسلامية والكيان الإسلامي ومجتمعه، وإن مرت بالأمة الإسلامية أوقات ضعفت فيها أو ارتبكت أو أصابها التناثر الذي يلتئم لتحريك الروح الإسلامي الوثاب، يرتقي بسرعة ويتقدم ليزيل كل التراكمات المنهوكة أو المنهكة، فيبدو الوجه الناصع للمجتمع المسلم متلألأ صافيا. وفي مثل هذه الأوقات المتقطعة في أي من الجوانب والبقاع والأحوال مهما غارت بعض المواصفات فهناك أخرى بقيت واضحة معبرة سرعان ما تسبح في زلال من الماء يجري ليغسل كل التراكمات. إذ إنّ الأمة الإسلامية كانت على الدوام تؤوب وتثوب إلى عقيدتها وتفيء إلى إيمانها بالله رب العالمين ودعوته وكتابه والسنة الكريمة لتقتدي برسول الله صلّى الله عليه وسلّم رسولا من الله إلى أهل الأرض اجمعين، وقائداً لا ترتضي بكل ذلك اي بديل. وما دامت هي كذلك فلا خوف عليها. والأمل اليوم أن يقوى هذا الاتجاه الإسلامي ويعمق

ويكبر ويمتد حتى يقيم المجتمع المسلم ممتداً في آفاق كثيرة عامرة إن شاء الله تعالى ينشر أجنحته على العالم يحميها من كل سوء وامتهان ويصونها من الضلال والتيه يرتقي بها ويديم عليها ـ بعون الله ـ نعمة الخير التي أرادها الله لبني الإنسان. والبوادر والحمد لله تتوافر كل يوم والقرن الخامس عشر الهجري إن شاء الله شهيد تلك الولادة الجديدة التي اعتادها ذلك المجتمع المسلم يوم كان يحيا بهذا الدين ترعاه دولته وتحمل رايته لتتقدم تلك الصور متوالدة متجددة عملية ويحياها الإنسان نعمة من الله وفضلا تقر بها العين وتسكن النفس وترتفع الأكف حامدة شاكرة لله رب العالمين، وساجدة له في كل حين فهي عند ذاك في عبادة لله على الدوام.

إن تناول الجوانب الحضارية والمناشط المتعددة الشاملة في المجتمع المسلم لا بد له من اعتبار كثير من الحقائق المنطقية والوقائع الجارية والطبيعة المعبرة، منهجية في تلك الدراسة ضرورية في تناول القضايا الإسلامية، وحياة المجتمع المسلم وجوانبها الحضارية للمجتمع الإسلامي. وبغير هذا الاعتبار ستظهر دراسة ذلك الأمر في كل قضية إسلامية ناقصة أو سطحية تهضم الحقائق وتفري الوقائع ولا تأتي بصورة أمينة لها، بل ستقدم صوراً مبتورة بعيدة شوهاء هزيلة لا تعبر عن المجال الذي عملت فيه وكأنها حديث عن شيء آخر. ولذاك يتطلب الأمر ترك هذا الميدان ممن لم يعرف السلوك فيه ولم يجد التعامل معه ولم يدرك حقائقها أو غمطها، حتى يتهيأ من تزود بالوسائل والمستلزمات الكافية للخوض في هذا الموضوع الذي يتطلب من صاحبه الفهم الدقيق بجانب الإيمان والتذوق والعيش في هذه المعاني ليفهمها ويغوص في أعماقها ويدرك حقائقها، فتكون دراسته

استخراجاً لكنوز وجلبا للآلئ وإظهاراً للوقائع خلال دراسته، وكم تكشف عن أمور كلما كانت تلك المستلزمات مستوفية كانت الثمار قوية المدلول بارعة الظهور عميقة الاتجاه.

هذه أمور ضرورية في منهجية التناول لدراسة القضية الإسلامية عموماً وكذا الحضارية. ومن له هذه المتطلبات فهو المناسب لهذه الدراسة وبالطبع فهو على دراسة أي قضية وأي لون من المجتمعات أمكن وأصدق وأجدر.

ومن هنا فكثرة من الدراسات البعيدة عن هذا المنهج كانت ضارة لأنها شوهت الحقائق - عن قصد أو غيره - ومن هنا أيضا لا بد من قيام منهجية جديدة تتفهم هذه الأبعاد، وتقيم البناء العلمي في آفاق رحبة خيرة منيرة بجانب الأمانة والموضوعية والحياد، فبها تتأهل بالمستلزمات العامة والخاصة بهذا البناء الإسلامي في المجتمع والحضارة والجوانب الأخرى. وهذه أمور ضرورية يجب أن يلتفت إليها الدارسون المحدثون ولا يخوضون في قضايا الإسلام ومحتوياته وأحواله إلا بذلك وإلا فعليهم أن يتركوا هذا الأمر لمن هو مؤهل له.

والدعوة اليوم إلى المتخصصين من المسلمين الذين يتبنون هذه المعاني ليتولوا هم دراسة القضايا الإسلامية بجدية وصبر وتضحية ليضعوا في يد الباحثين والراغبين والمهتمين إنتاجاً حقيقياً لهذه الأمور والجوانب والقضايا المتعددة خدمة لهذا الدين فهم أولى بهم من غيرهم ليقرأ هذا الإنتاج الخير كل أحد يفهمه ويقبله ويحبه ومن فاته ذلك يعود إليه ومن استعاض بغيره يرمي تلك التشويهات فيقبل إلى الطريق الخير السليم الأمين. والحمد لله رب العالمين قد توفرت اليوم بحوث نأمل لها الزيادة والاتساع والثراء في كل

هذه الأمور على تعدد ميادينها، والأمل إن شاء الله تعالى أن يكثر ذلك ويتسع ويشمل الجوانب كافة يكفيها ويغنيها عن الميل أو اللجوء إلى غيرها لتتقدم الصور الحقة والمثل الوضيء والحقيقة المشرقة. والحمد لله رب العالمين وبه نستعين وله الفضل والمنة على ما أنعم بذلك وعلى توفيقه راجين أن يوفقنا لخدمة هذا الدين إن شاء الله رب العالمين.

المقومات العلمية للحضارة الإسلامية

هذه الدراسة في الحضارة الإسلامية عموما، والأندلسية منها خصوصا ـ أحد مواطنها المترامية ـ تتناول ظواهر متعددة لا سيما الظواهر العلمية، التي تتعين وتتعلق بالعلم والعلماء وطاقتهم وأسلوبهم وإنتاجهم. وهي تكشف عن وجه من وجوه الحضارة الإسلامية وتهدف إلى تبيان حقيقتها وتعمل للتعرف على إطارها الأصيل الجاد وصورتها الوضيئة وحدودها الإنسانية الواسعة. ولا تقوم هذه الدراسة على تعداد وذكر الجوانب العلمية وإنتاجها وأعلامها مجردة، لأن ذلك ثمرة ونتيجة وصورة لنوعية المقومات الحضارية في المجتمع المسلم بل هي ترد ذلك كله إلى الأصل الذي أنبتها. فهي أوسع من ذلك كله وأوعى لها في آفاقها وشمولها وأعمق منها في أغوارها وجذورها الراسخة. إنها تعتني باستجلاء أثر الإسلام في كل خطوة حين كان المجتمع المسلم ملتزما بالإسلام ـ فردا وجماعة، ومجتمعا ودولة ـ وبيان أنّ ذلك كلّه مرتبط بالإسلام عقيدة وشريعة. وبذلك نتعرّف على الصور الإسلامية والحياة من خلال حال المسلمين ونطلع عبر المجتمع المسلم على الحياة العلمية بأعرافها وظواهرها وقيمها ومنهجيتها، بالأمثلة والوقائع

والشواهد القولية والفعلية، وإن كانت لنا الثقة بالشواهد القولية وحدها لأنّ نوعية المجتمع المسلم التقي لا سيما علماؤه كانوا يتحوّبون فيما ينوون ويقولون، بله ما يفعلون.

المنطلق الإيماني للمعرفة

قامت الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية على أسس قوية قويمة تقرأ فيها ـ مثلما تقرأ في غيرها ـ عقيدة الإسلام وشريعته التي شملت كل نواحي المسلم وأموره، والحياة العلمية جانب منها. فالإيمان ـ في هذا المجال وفي كل مجال ـ ينتج ـ مما ينتج ـ العزة والغزارة، عزة بالله وبشكل ما كان بدونه، وغزارة آثارها ودفقها وباركها هذا الإيمان، وباسم الله تفيض بالإنتاج المتوّحد المتنوع والناصع النافع. وهو أمر مشهور وإن كان مطمورا أو مهجورا أو محجورا. وهذا الطابع ـ في واقع الحياة عندهم وحال التناول عندنا ـ ظاهر حتى في الجزئيات من أي ميدان.

وهنا وإن لم نفصل لكنا نبين ظواهر تقوم على إنتاجها، وهو أعز ما لدى الإنسان ونفهم منه أنّ أعز ما لدى المسلم يضعه في حال أقرب إلى الله، يسعى إلى تأكيده وتزيينه، وهي ظواهر متعددة في الحياة العلمية والإنتاج الكثير الغزير النافع المضيء. فالمقومات العلمية بكل آفاقها وأحوالها وأعماقها ـ الشامخة المتميزة المتفردة في الحضارة الإسلامية ـ ليست إلا ثمرة من ثمار العقيدة الإسلامية وشريعتها، فكان الإيمان بذلك كله، وبالشكل العملي والطابع الجدي والاتجاه الملتزم فيه، هو المنطلق الإيماني للمسلم في هذه الحياة، بكل جوانبها وكذا المعرفي منها ـ يعمرها، ويعد نفسه للقاء الله تعالى في الآخرة. ولذلك فإنّ هذا الأمر ينعشه ويضاعف جهده ويعلي

مستواه، فأثره مضاعف في الكم والكيف. فالمنطلق العلمي للمعرفة الشاملة كانت بعد معرفة الله تعالى وشرعه وثمرة له ومعرفة النفس في هذا الضوء وموقعها في هذا الوجود.

المنطلق العلمي وآثاره

كان هذا هو المنطلق العلمي في الحضارة الإسلامية، وبدت آثاره واضحة ثرية متميزة، وحق لها ذلك، ولا غرابة.

انطلق المسلمون بإيمانهم العميق بالله تعالى وبرسالة الإسلام الخالدة التي ملئت بها نفوسهم وازدانت فعالهم إلى الحياة، يشيدونها بالخير ويملأونها بالمحبة وينيرونها بالمعرفة الحقة. فعمروا الأرض بالفضائل وأضاءوا دياجيرها، فكشفوا عنها ظلامها ـ عبادة لله ـ وجعلوا ليلها كالنهار، بعد أن كان نهارها كالليل الحندس شديد الظلام فوضعوها على المحجة، ولات غيرها، كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في معنى حديثه الشريف: " تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها "[1].

فكل الأرض ـ على رحبها ـ محراب للمسلم، ما دام يتقرب بعمله إلى الله عزّ وجل ويتوجه بقلبه إليه. وذلك سر هذا الإسلام، يدركه أهله ولا يغيب عن مراقب. يقول ابن حزم الأندلسي (456هـ/1063م) حين الحديث عن إنتاجه: " لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسمّيها، والمراد بها ربنا جل وجهه"[2].

---

(1) انظر: جامع الأصول، 1 / 292 (تحقيق الأرناؤوط، دمشق).

(2) نفح الطيب، المقري، 3 / 177 (بيروت، 1968).

ويقول العلامة الشهيد أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي الأندلسي (بلنسية 565ـ بلنسية 634هـ) في مقدمة كتابه "الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء": "وكل ذلك يشهد الله أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم، وإحسانه العميق، ورحمته التي منها شقّ لنفسه أنّه الرحمن الرحيم"[3].

أما العلامة أبو القاسم الشاطبي (590هـ) فقد نظم قصيدته "الفريدة"[4] "حرز الأماني ووجه التهاني" التي أودعها القراءات السبع" وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا "[5]. وقال عنها: " لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها، لأني نظمتها لله تعالى مخلصا في ذلك "[6]. فليس أحلى ولا أوقع ولا أقوى من كلام يراد به وجه الله تعالى[7].

وطلب العلم لله سبحانه يجعل صاحبه يعتزّ بالله تعالى، فلا يستعمله إلاّ فيما يرضيه ويشعر بالقوة به فلا يذل لسلطان ولا يذل علمه أن يبيعه سلعة يقهرها، صبًّها في أي قالب أو يطرحها في كل سوء.

---

(3) الاكتفاء، الكلاعي، 1 / 5 (القاهرة).

(4) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، 551/2/5 (بيروت، 1965).

(5) وفيات الأعيان، ابن خلكان، 4/ 71(بيروت).

(6) وفيات الأعيان، 4/71. كذلك: نفح الطيب، 2/ 24 ـ 25. وعن مثل آخر في هذا الباب انظر: بغية الملتمس، الضبي، 194(القاهرة).

(7) قارن الصلة، ابن بشكوال، 78(القاهرة). لم تذكر هنا المعلومات الكاملة للمرجع التي ستكون في مناسبة أخرى حين يطبع – إن شاء الله تعالى – هذا ضمن كتاب فيه قائمة خاصة رغبة في عدم الإطالة .

فيذكر ابن الأبار في التكملة حادثة مؤداها أن هاشم بن عبد العزيز (273هـ) وزير الأمير محمد الأثير[8]، ذهب إلى مجلس الشيخ أبي وهب عبد الأعلى يستفهم عن مسألة فقه فأفتاه. ولما قام الوزير لينصرف تحرّك أحدهم ليقوم معه فأجلسه أبو وهب ثمّ قال له: " ما أردت بهذا؟ كنت أردت إكرامه في مجلسك. فقال لي: بئس ما صنعت؛ يا هذا: إن كنت تطلب العلم لله تعالى، فأعزّه ليعزّك الله تعالى؛ وإن كنت تطلبه للدنيا فخل عنا، وكن خادما لهؤلاء متصرفا بين أيديهم، فهو أنفق لك عندهم وأكسد لك عند خالقك" فخجل الرجل وحافظ على وصية الشيخ[9].

العلم والعمل

والعلم - ثم العمل النظيف الخير - عند المسلم شق الإيمان وثمرته، وبه يرتفع ويسمو ويعمق ويصفو ويصبح هادفا نافعا " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع "[10]. فيغدو العلم - من ناحية طلبه وإبلاغه والحرص عليه والتقوى في نقله، وكذلك العمل به - جزءا من العقيدة لا ترتضي غير الدقة والإخلاص والأمانة، وهي وسائل البحث العلمي المتين الأمين. فهو فضيلة وضيئة و" خير الفضائل ما سطع نوره وانتشر ذكره وكان علة لفضائل وسببا لمفاخر "[11].

ومن نصيحة القاضي محمد بن يحي بن بكر الأشعري (شهيد معركة

---

(8) الحلة السيراء، ابن الأبار، 1/ 137 (القاهرة).

(9) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، 2/ 751 - 2 (القاهرة).

(10) حديث شريف.

(11) قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا، الخشني، 10 (القاهرة).

طريف سنة 741هـ) لطلبته قوله: " وليكن همّكم أن تكونوا من الديانة والدراية بمثابة من يقبل قوله فيما يدّعيه ولا يكذّب فيه "(12).

كما يدعو الإيمان إلى الإنفاق المتطوّع الحريص، على هيئة من الشمول فريدة. ومن لم يمارس لونا من المعرفة كان هالكا " أغدُ عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبّا ولا تكن الخامسة فتهلك "(13).

والحديث عن العلم في الإسلام مستفيض وبحره زاخر لا يغيض، وليس هنا موضعه(14)، بل الحديث هنا عن الكتاب إحدى ثماره وظاهرته العلمية.

فالكتاب وعاء العلم ومستودعه، يحفظه ناقلا من السلف إلى الخلف، جيلا بعد جيل. كما أنّ إدراك العلم وفهمه وتمثّله وتسخيره لنفع الإنسان وخيره ومعرفة مكانته في الوجود هو الغاية، والكتاب وسيلة إيصاله، لا لحمله أسفارا. ويعبّر عن هذا المعنى الرحالة والجغرافي الأندلسي أبو حامد الغرناطي بقوله:(15)

العلمُ في القلبِ ليس العلمُ في الكتبِ ... فلا تكن مُغْرماً باللّهو واللّعبِ
فاحفَظْه وافهَمْهُ واعمل كي تفوزَ به ... فالعلمُ لا يُجتَنى إلاّ مع التّعبِ

---

(12) المرقبة العليا، أبو الحسن النباهي، (نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948)، 146.

(13) حديث شريف، رواه الطبراني والبزار ورجاله موثقون (جامع بيان العلم، 36/1).

(14) لأبي عمر يوسف بن عبد البر كتاب " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله " جيد في هذا الباب.

(15) نفح الطيب، 236/2.

ومن قصيدة مطوّلة في " الآداب والسنة " وجّهها إلى بنيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري يبجّل فيها العلم والعمل به[16] :

واعلم بأنّ العلمَ أرفعُ رتبةً   وأجلّ مكتسبٍ وأسنَى مفخرِ
فاسلُك سبيلَ المتقنين له تَسُدْ   إنّ السِّيادةَ تُقتنى بالدَّفترِ
والعلمُ ليس بنافع أربَابَه   ما لم يُفِد عَمَلاً وحُسْنَ تبصّرَ
فاعملْ بعلمك توفِ نفسَك وزنَها   لا ترض بالتَّضيِيع وَزنَ المُخسَرِ
سِيَّان عندي علمُ من لم يستَفد   عَمَلاً به وصلاةُ من لم يطهرِ

وقد أشيد بالعلماء بأنّ أحدهم " كان من أهل العلم والعمل "[17]، أو يذكر تحليه بأنواع من العلم والصفات العملية الفاضلة، الأمر الذي سيرد منه الكثير في طيات هذا البحث.

الحفظ والاستيعاب

وظاهرة الحفظ والاستيعاب، واضحة منظورة في تاريخ العلم عند المسلمين وهي صفة لازمة متمشية مع الأصول الإنسانية، وهي لها ثمرة. من ذلك ما ينقله المقري في نفحه من أنّ الحافظ أبا عمرو الداني " كان يقول: ما رأيت شيئا قط إلاّ كتبته، ولا كتبته إلاّ حفظته، ولا حفظته

---

(16) جذوة المقتبس، الحميدي، 280، ترجمة 624 (القاهرة). بغية الملتمس، 374 ـ 5 ترجمة، 1058. إعتاب الكتاب، ابن الأبار، 194 (دمشق). الصلة، ابن بشكوال، 357، ترجمة، 763.

(17) التكملة، 1/166. برنامج شيوخ الرعيني، 42 (دمشق). نفح الطيب، 2/140. انظر: سير النبلاء (ترجمة ابن حزم الأندلسي)، الذهبي، 31 (بيروت). اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي، يحتوي على شرح لهذا الموضوع كما هو واضح من عنوانه.

فنسيته"[18].

وليست هذه ظاهرة نادرة بل هي كثيرة مألوفة، طالما تكرر وتوافر وصف أصحابها بأنّهم" من أهل الحفظ ". فوصف هارون بن سالم (238هـ) بأنّه "كان يحفظ المسائل حفظا حسنا "[19]. ويذكر المقري في نفحه عن الفقيه الحافظ المتبحر أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبي (419هـ) بأنّه" كان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم، عارفا بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء، ذاكرا للروايات، يحفظ المدونة والنوادر لابن أبي زيد، ويوردها من صدره دون كتاب"[20]. والمدونة في الفقه المالكي، وهي من أجلّ كتب المالكية أخذها سحنون فقيه المغرب وقاضي قضاتها (240هـ) عن مؤلفها أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي (132ـ 191هـ)[21].

ويذكر ابن الأبار عن الحافظ أبي عمر بن عات (المستشهد سنة 609هـ) بأنّه كان" يسرد المتون والأسانيد ظاهرا لا يخلّ بحفظ شيء منها" [22] وكان

---

(18) نفح الطيب، 2/ 136 .

(19) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 2/ 169 ترجمة، 1530 (القاهرة). المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي، 2/ 221 (القاهرة) .

(20) نفح الطيب، 2/ 61. كذلك: الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، 4/ 245 (القاهرة).

(21) عن ابن جنادة راجع: وفيات الأعيان، 3/ 129. العبر، الذهبي، 1/ 307 (الكويت).

(22) التكملة، 1/ 101 ترجمة 262. كذلك: نفح الطيب، 2/602. الذيل والتكلة، 1/ 560.

يحفظ البخاري والموطأ. وكان يقرأ منهما" نحو عشر أوراق عرضا بلفظه كلّ يوم عقب صلاة الصبح لا يتوقّف في شيء من ذلك"[23]. كما كانت له محفوظاته الأخرى[24].

وذكر عن أبي عمر الباجي (أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي اللخمي الإشبيلي، 396هـ) أنّه" كان يحفظ عدّة مصنّفات"[25]. أما أبو الحسن فرج بن أبي الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليحصبي من أهل طليطلة (448هـ) فقد" كان يحفظ المستخرجة الكبيرة حفظا جيدا "[26]. وكذا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر (507 - مراكش 595) المتفرد بالإمامة في الطبّ في وقته كان" يحفظ صحيح البخاري أسانيد ومتونا"[27].

ومن غير شكّ فإنّ هذا يأتي نتيجة المقدرة والمستوى العلمي الجيد والرغبة القوية والحرص وبذل الجهد والصبر عليه والمواظبة فيه، مع التفتّح في القابليات، مقاما على حياة علمية ناصعة أصيلة شاملة في المجتمع. فيذكر الضبي في بغيته حين الحديث عن القاضي الإشبيلي أبي بكر محمد

---

(23) الذيل، 1/560.

(24) الذيل، 1/560.

(25) العبر، الذهبي 3/60. جذوة المقتبس، 128 ترجمة 223. بغية الملتمس، 185 ترجمة: 423.

(26) الصلة، 461 ترجمة، 986. وعن أمثلة أخرى راجع: الصلة، 417 - 418. نفح الطيب، 2/ 648.

(27) التكملة، 2/555، ترجمة، 1499.

ابن العربي (543هـ) بأنّه " كان يحفظ في كلّ يوم سبع عشرة ورقة "[28].

وقاضي الجماعة بقرطبة أبو المطرّف عبد الرحمن بن فطيس (402هـ)، الذي كان عالي الطبقة وذا قدرة علمية نادرة ودرجة كبيرة من " سعة الرواية والحفظ والدراية، وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده ومستمل بين يديه على ما يفعله كبار المحدّثين بالمشرق والناس يكتبون عنه "[29].

أما الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي فقد كان " كثير المحفوظات جامعا لفنون العلم . . . مستبحرا "[30]. وحين سئل عن حفظه الفقه قال: " إني أحفظ وقر جمل من كتب "[31].

والجدير بالذكر أنّ حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر متوافر متعارف، ولكن هذا الوصف يشمل زيادة على ذلك.

---

(28) بغية الملتمس، 93، ترجمة، 179 .

(29) الصلة، 310، ترجمة، 682. كذلك: ترتيب المدارك، القاضي عياض، م2/ 671 (بيروت).

(30) الذيل والتكملة، 5/549.

(31) الذيل والتكملة، 5/549. نفح الطيب، 2/ 25.

إذا كانت جودة المخبَر هي الأساس فتطابق المظهر معه يكون جيداً ومعبراً وعندها يتعاون المظهر والمخبر كلاهما في خدمة الحقيقة الخيرة وإظهارها والتعبير عنها بصراحة ووضوح ودقة. وهذا الوضوح مطلوب حتى في السوء، وقد يكون ذلك أدعى إلى النصيحة والصلاح والتفاهم والإقناع وأدعى إلى القبول لكلمة الحق والتوجه نحو الخير. والسيّىء جدا عدم التطابق بينهما، فيصبح من الخداع أن يغري المظهر ليبرر ما يحتويه من السوء والانحراف ويستر ما تحته من العفونة والظلمة. وكلما كانت المفارقة بينهما بعيدة ـ لا سيما في حالة سوء المخبر والطوية ـ كان شديد الضرر وبعيد الأثر، وهنا يصح التعبير بأنّ المظاهر خداعة.

وكم يؤلمك ويقتلك بل وينكبك أن ترى ثمرة زاهية القشور فيفجؤك خواء باطنها أو يفجعك نتانة مخبرها إذ تتفحص داخلها فيطالعك زكام رائحتها ونفورك عنها يرغبك بالفرار منها.

ومن حسن مخبره يسهل عليه إحسان مظهره ومن ساء مخبره فسوء مظهره أهون كثيرا من تزيينه خداعا وبعض الشر أهون والأمل في إصلاحه أقرب. أما الذي يزين ظاهره مع إفلاس في الداخل فليس إلا نخاسا يتاجر بكل باطل ومزورا لكل منكر، بهتانا. فقد توعّد الله هؤلاء بالإثم الكبير وشدّد عليهم النكير ولهم عذاب أو قسط عذاب جهنم وبئس المصير وهم المنافقون الذين ينادون على كل سلعة خاسرة ويتابعون بكل تجارة بائرة إنهم شر الناس، مهما تفاوتوا.

ولقد اعتنى الإسلام أشد العناية بداخل الإنسان ليكون طيبا ونظيفا

وأمينا مع العناية بالظاهر من غير مغالاة ولكن جعل الداخل هو الأساس فإنّما الأعمال بالنيات، وهذا هو البناء العام للمجتمع الإسلامي في كل ميدان.

وحين يقوم الداخل الإنساني على الخوف من الله تعالى وطاعته وحب شريعته والعمل للفوز في آخرته يعتني كثيرا بداخله كمن يملك بستانا عاش لها ورعاها وينفق في كل ذلك يومه وليله. والخارج عنده لا يكون إلاّ لخدمة الداخل على السمت نفسه، يلتزم بعين المتطلبات ويقف على الحدود نفسها. وهذه ظاهرة واضحة في المجتمع المسلم وفي حضارته وإنتاجه بوضوح كامل وظهور شامل والميدان العلمي في ذلك معبر.

لم يعتن الإسلام بالشكليات والمظاهر ولا بالشهادات والألقاب إلا أن تكون معبرة بل إنّ الحقائق الداخلية هي التي تضفي على هذه الشهادات قيمتها وتعطي لتلك الألقاب مكانتها وإلا فهي كطبل أجوف مهما علا صوته وشق الأجواء هديره وملأ الأسماع صراخه لا يقدم نفعا غير التطبيل ولا يقيم غير التشويش ولا يكيل غير الخسران ولا يثبت أمام شيء وسرعان ما ينشق عن الخواء وينتهي من غير عناء ومن غير دفع أو نفع أو بناء.

لم يكن العالم الإسلامي يأبه لمثل هذه الظواهر على تعدد الميادين، وعلى هذا الأساس كانت عنايته بالعلم الكريم ووضعه في مكانته بهذه المقومات عارفاً حقه ووظيفته وحقيقته ومكانته وقدر أهله إذا التزموا بهذا النهج القويم. ولقد تعلم المسلمون كل هذا وأمثاله من دينهم وحده واستمدوا منه دون سواه وتربوا عليه وعاشوا به أسوياء أقوياء أتقياء، يفيضون خيراً وبراً وعطراً.

إنّ مجرد الحصول على شهادة علمية لا يعطي تزكية لصاحبها أو يمنحه ثقة، وتعلم المسلمون ـ لا سيما علماؤهم ـ أنّ ذلك يكمن في مواطن الأخلاق العلمية ومسلكه وتصرفاته. فإذا كان المتعلم أو صاحب الشهادة يدجل في تصرفاته وينافق ويتآمر ويلفق ويكذب ويحرف، وهو بذلك يكون لنفع ويتعرف أو ينحرف من خوف، وهذا مصدر رفض لتصرفه وامتهان له ولعلمه، والشأن في رفض ما يكتب أقوى وأشد. فكيف إذا كان من حملة الشهادات العلمية هؤلاء رواد معاصٍ ومباءة انحراف وثغرة هبوط وجوف خراب وتجار أفكار وعارض أزياء، هل يصلحون موطنا للثقة أو موئلا للأمانة بله دافعاً للإصلاح ومبرة للخير ومبصرا للحق وحماة للفضيلة.

كان علماؤنا المسلمون لا يحبرون الرواية ولا يأخذون العلم عمن ثبتت عليه معصية أو يتضح له سوء سلوك، وفي قواعد الثقة العلمية رفضوا من عرف عنه النسيان أو إهمال وهو علم الجرح والتعديل. فلم يفرق بين الخلق العلمي والشخصي، فالإنسان كل لا يتجزأ فاعتمدوا صاحب التقوى والورع وبه يتحقق مكانه ويؤدي العالم مهمته. وهل يمكن شجب أو سحب شهادة من يرتكب انحرافاً أو يمارس زوراً أو يتولى خيانة أو يقترف جريمة إن لم نقل يحل حراما ويحرم حلالاً ويحتضن معصية أو يحرض عليها. ومن شعر الشافعي:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حِفْظي ... فأرشَدَني إلى تَرك المعَاصي
وأنبَأني بأنَّ العلمَ نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدىٰ لعَاصي

والظواهر الحضارية عموما والعلمية منها تؤكد هذه الحقائق بالوقائع

المصورة أو الصور الواقعية التي كانت عمل اليوم والليلة تفوح فيها حياتهم ويعبق منها إنتاجهم وتزكو بها نفوسهم فإن العلماء الذين كرمهم العلم - على أساس إسلامي - فكرموه ووضعهم في مكانته فوقروه قاموا بهذا المعنى وكان العالم لا يتحرك إلا بها ويرى نفسه كبيرا ومتواضعا كل في مكانه أو كليهما في مكان فما أذل العلم عالم، حتى ليذكر عن عديد من العلماء أن من سنة العلم التي صانوها أنه ما كانوا يذهبون إلى أمير أو حاكم إلا لأمر يرضي الله ولا يخضعون لما يغضب الله تعالى في كل هيئة وحال وموقف وكانوا وقافين عند حدود الله رافعين لبنود شريعته لا يخافون في الحق لومة لائم.

وإذا أردنا الحديث عن كرامة العلم ومكانة العلماء فنوضح ذلك بالأمثلة وهي جد كثيرة، كثرة إنتاج وعزة نفس وحرص على الأخذ والبذل وصيانة للمتعلمين والمريدين والأهل وإنفاق من أجل ذلك بلا توقف أو تمهل. فقد كانوا بالله مرتبطين وذلك ثمرة مباركة لا تجنى إلا من هذه الشجرة الطيبة، فما أبركها ثمارا وأزهاها أشجارا على سمت كريم ونسق سليم وسبيل مستقيم.

كرامة العلم ومكانة أهله

إنّ كثرة الكتب وتنوّعها واهتمام أمّة مّا بها نتيجة طبيعية لمستواها العلمي العالي ولشيوع المعرفة فيها ولعنايتها بمرافق العلم وتكريم أهله وتشجيعهم واستقبال القاصدين لها والنازحين من حامليه وطلابه، استمدادا من الشريعة الإسلامية التي اعتبرته أساسا وقياسا في الواقع

وأقامت عليه مجتمعه وتعاملت به وزهت بها حياته وبه نعمت ويصبح ذلك حلبة متسابقا فيها الناس، ويتعاونون على البلوغ حتى غدا طبيعة وصفة لازمة وتيارا يحمل مؤنته بقوة متأصلة وحيوية متجددة وهمة لاتعرف التردد والنكوص بل هي ماضية ببهائها ونقائها وحسن رعايتها وأمانتها معطاءة مضحية متقدمة برة متزودة بالتقوى وهو خير زاد، فكثر الإنتاج وارتقى العلم واتسعت المعرفة.

وهذه الصفة منطبقة على العالم الإسلامي كافة، وإن تفاوتت في الدرجة، تشهد بذلك الحقائق والوقائع والأمثلة والشواهد تتضافر وتتكرر لتقدم أمثل الصور. فيقول ابن خلدون في مقدمته: " وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كلّ قطر وعظم الملك، ونفقت أسواق العلوم وأجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس أهل الأقطار لذلك وتناغوا فيه "[32].

ولقد عرفت الأندلس ـ وغيرها من البلدان الإسلامية ـ بـ"كثرة علمائها، ووفور أدبائها، وجلالة ملوكها، ومحبّتهم في العلم وأهله، يعظّمون من عظّمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه "[33].

ومن مأثور الأمثلة ما ترويه كتب التاريخ عن العالم اللغوي " المذكور بالديانة والفقه والورع " [34]أبي غالب تمّام بن غالب المعروف بـ" ابن التيّاني"

---

(32) مقدمة ابن خلدون، 3/1090(القاهرة، 1387هـ= 1967م).

(33) نفح الطيب، 3/ 157(بيروت، 1968).

(34) نفح الطيب، 3/172 . وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 300(بيروت).

أنّه صنّف كتابا جليلا" تلقيح العين"[35]. والتياني قرطبي الأصل، كان يسكن مدينة مرسية شرقي الأندلس. ولما وقف على هذا الكتاب الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، أيام حكمه مرسية، أرسل إلى ابن التياني ألفا من الدنانير الأندلسية مع كسوة على أن يزيد في ترجمة الكتاب عبارة: " مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد"[36]. لكنّ أبا غالب ردّ على الأمير مجاهد الألف دينار والكسوة وقال: " كتاب صنّفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى اسم ملك، هذا والله ما لا يكون أبدا "[37]. فكان أن زاد التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس "[38]. ويذكر الحميدي ، في جذوته أنّ التياني قال أيضا بهذه المناسبة: " (والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإنّي لم أجمعه له خاصة، لكن لكلّ طالب عامة) فأعجب لهمّة هذا الرئيس وعلوّها وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها " [39]ف" هكذا ينبغي أن تكون الملوك وكذا يجب أن تكون العلماء " على حدّ تعبير الحجاري[40].

فكانت للكلمة عند العلماء والكتاب المسلمين مكانتها وأهميتها،

---

(35) فهرسة ابن خير، 359 ـ 361 (الطبعة الجديدة، 1382هـ= 1963م).

(36) جذوة المقتبس، 183(القاهرة، 1966).

(37) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، 1/ 166(القاهرة، 1964). والأمثلة في هذا الباب كثيرة. انظر مثلا التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، 2/ 752(القاهرة، 1375هـ= 1956م).

(38) المغرب، 1/ 166.

(39) جذوة المقتبس، 183 . كذلك: نفح الطيب، المقري، 3/ 172.

(40) نقلا عن: المغرب، 1/ 166.

وفعلها في كلّ أوان وفي أيّ ميدان وهي أمضى من سنان. فليس عجبا أن "يكون قلم الكاتب أمضى من سنان المحارب"[41].

وبضُمَّرِ الأقلامِ يبلغُ أهلُها ما ليس يبلغُ بالجِياد الضُّمَّرِ[42]

ومن أبيات قالها قاضي الجماعة بقرطبة - أيام عبد الرحمن الناصر - منذر ابن سعيد البلوطي (فحص البلوط 265ـ قرطبة 355هـ) في حفل استقبال وفد إمبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع (المعروف بـ" بورفيرو جينيتوس" أي: الأرجواني) في قرطبة سنة 336هـ(947م) يشير إلى هذا المعنى:[43]

مقالي كحدّ السيف وسط المحافل فـرّقت به مـا بين حقّ وباطل

ومن اللطيف أنّ بعض من تولّى شؤون الكتابة والحكم وأجادهما لقب بـ" ذي الوزارتين" أي القلم والسياسة. وأوّل من لقّب بهذا في الأندلس على ما يذكره أو ينقله ابن الأبار[44]هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن الناصر (300ـ 350هـ). وأبو عمر

---

(41) من" فقر في وصف القلم والمداد والكتاب" أوردها ابن بسام الشنتريني في "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، 1/2/28. وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي حفص ابن برد الأصغر (الحفيد). الذخيرة، 1/2/ 18 - 52. المغرب، 1/86 - 91. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 2/106.

(42) من قصيدة الجزيري، انظر: المغرب، 1/322.

(43) نفح الطيب، 1/373.

(44) الحلة السيراء، 2/238. كذلك: جذوة المقتبس، 131 (ترجمة: 299). بغية الملتمس، 190. نفح الطيب، 1/380.

هو جدّ سميّه: أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد (382ـ426هـ[45]) الشاعر الأديب المشهور صاحب رسالة " التوابع والزوابع"[46]، وكتاب "حانوت عطار"[47].

ولعلّ من الطريف هنا أنّ للوزير الكاتب أبي حفص بن أحمد بن برد الأصغر (الحفيد)[48] المذكور توا "[49] رسالة السيف والقلم" في المفاخرة والمفاضلة بينهما، " وهو أوّل من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس"[50]. وقد وردت هذه الرسالة في ذخيرة ابن بسام[51].

---

(45) جذوة المقتبس، 133(ترجمة: 232). الذخيرة/ 1/1/ 161 وبعدها، 381. بغية الملتمس، 192. ولا يبدو أنّ ولادته كانت سنة 382هـ. نفح الطيب، 244/3.

(46) الذخيرة، 1/1/210.

(47) جذوة، 133. بغية، 191، خريدة القصر، العماد الأصفهاني، 2/635. الوافي بالوفيات، الصفدي، 7/144.

(48) تمييزا له من جدّه (كنيه وسميّه ونظيره في الرتبة): الوزير الكاتب أبو حفص بن برد الأكبر (الجد)، الذي" كانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربع مئة وقد نيف على الثمانين". الذخيرة، 1/1/84. جذوة، 119(ترجمة: 199). بغية، 172(ترجمة 387). الصلة 38. المغرب، 1/204. نفح الطيب، 1/424. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 5/ 41 وقد لحق الحفيد الجد وقرأ عليه. المغرب، 1/86. ويبدو أنّ الدكتور حسين مؤنس توهّم فخلط بينهما. الحلة السيراء، 1/271. راجع: نفح الطيب، 1/424. الذخيرة، 1/1/ .

(49) هو وأمثاله كثير.

(50) جذوة، 115(ترجمة: 192). بغية، 164(ترجمة: 354). المطرب، ابن دحية الكلبي، 127(القاهرة، 1954). نفح الطيب، 3/546.

(51) الذخيرة، 1/2/ 435 ـ 441.

أصالة نتاج الحضارة الإسلامية

استكثارا وانتصارا

النظر في نتاج المسلمين العلمي والعملي والإنساني في الحضارة الإسلامية التي شادوها بمنهج الإسلام دين الله تعالى يثير الدهشة والإعجاب لشموله وكميته ونوعيته، أصالة في العلم وعمقا في التفكير ودقة في الفهم وكثرة في التأليف وشمولا للنظرة والمعرفة والفكرة، رغم توفر التخصص.

والكثرة تتمثل كلها في كثرة العلماء وشيوع المعرفة في الفنون وكثرة النتاج لثبت طويل من الأعلام، وكثرة النتاج بالنسبة إلى وفرة منهم وأحيانا يتم ذلك في أمد قصير، مواصفاته العلمية وأصالته وسبقه وما يحققه من انتصارات، فهم من المكثرين والمجودين والمعجلين الذين أنتجوا خير إنتاج في أمد قصير. جرى ذلك كله لأنهم أخلصوا لله فبارك في إنتاجهم وأوقاتهم وقصدوا وجهه الكريم فأثابهم خيرا ووفقهم للإنتاج الطيب النير الخير.

ومراجعة الفهارس - وهو فن إسلامي واضح، سواء كانت فهارس مؤلفات أو فهارس ومعاجم وبرامج ما درس كل عالم من العلماء لمن دونوا ذلك بجانب مؤلفات الرجال والأعلام التي ترجمت لهم وهي كثيرة في العالم الإسلامي وما نشر منها حتى اليوم غير قليل - كلها تعطي دليلا قويا رغم أن ما عرف منها يعد قليلا فهي توضح كل ذلك وتجليه وتعليه. وبه نفهم كثرة العلماء والإنتاج الأصيل والسبق المنتصر الكثير العميق الذي يتسم بالإبداع

الإنساني والشمول العلمي والارتفاع الفكري للارتقاء بالإنسان وتحقيق مواصفاته الإنسانية الخلقية كما أرادها الله تعالى، ولا تكون إلا بهذا الدين. فوجدنا العالم الإسلامي منذ وقت مبكر تقدم فيه الإنتاج وتوفر وازدهر وكثرت المكتبات التي شغف بها الناس وامتلأت بالكتب في تلك الظروف والوسائل والأحوال، مما يثير تصور وقوعه وجريان حصوله ويجعل حدوثه أمرا مثيرا للدهشة والغرابة والإعجاب.

وهذا ليس خاصا ببلد من بلدان العالم الإسلامي ولا بعصر من عصوره، فهو في الغرب الإسلامي الأندلسي وغيرها مثل شرقه. ومراكز العلم والمعرفة في المدن العامرة الكبيرة والصغيرة مليئة في العالم الإسلامي، حتى لتكاد تنطبق هذه الصفة على كل مدنه.

وإنّ هذه الحصيلة الضخمة في التأليف المتمثّلة في الأعداد الكبيرة من الكتب تَوَّجَها العلم الواسع بالمستوى الرفيع في أنحاء العالم الإسلامي كافة وفي الأندلس الإسلامية كان ذلك واضحا ووصلتنا أخباره وإن كان فُقِد الكثير منه، فما وصلنا غير قليل، وكم من العلماء نجد لهم المؤلفات الكثيرة بلغت لكل منهم عددا كبيرا ورقما عاليا يصل بكل ثقة فيعد بالعشرات بل وبالمئات.

وعملية التأليف ليست مجرد إنتاج وليست سهلة، فهو ليس إنتاجا سهلاً أو يسيراً، بل هو عصارة العقول الخيرة الكبيرة والنفوس الكريمة التي علّمها الإسلام كيف تحبّ العلم وتخدمه وتكرمه، تجويداً وعطاءً وحفظاً وحرصاً، خلال الأجيال العديدة والقرون المتطاولة المديدة. وما كان بالإمكان مثله لولا ارتقاء مستوى العلم والاهتمام به على ضوء الإسلام

وهديه. فكان ذلك استجابة لإسلامهم وانسجاماً مع عقيدتهم، وهو بدوره جزء منها. واستمر ذلك حتى في كل الظروف المثقلة والأحوال المحزنة والأحداث المربكة.

والتأليف الجادّ ذو الأصالة عملية اعتصار تكون شاقّة، على الأقلّ في أحيان كثيرة. ونجد ذلك واضحا عند علمائنا وارتضوه طريقا وخدموه تحقيقا وقبلوه حسبة ومثوبة برغبة وفيرة وانطلاق خير طلبا لرضا الله. نجد هذا مدركا لديهم كما يتبين من إنتاجهم. نجد هذا بصورة جلية في كتاباتهم. فمن رسالة لابن حيّان القُرطبي (469هـ) إلى ابن عبد الغفور بعد إعارته سفراً من تاريخه: " ليس يخفى عليك مكان هذه الصحف المستملاة من الصدور، المستعراة من النظير، من أَنْفُس مؤلّفيها، وقلوب مصنّفيها، فأبثك شأن الاهتمام بها "(52).

والإنتاج الكثير العميق الإبداعي ظاهرة تستحقّ الاهتمام وتستأهل التقدير، وتدلّ على الأصالة والعمق والغزارة. وكلها متوافرة واضحة طابعا غامرا متميزا للحضارة الإسلامية. ولدينا مع ذلك بعض إشارات بديعة لها فوق دلالتها الخاصة. وإليك بيان ظاهرة واحدة من ظواهر العلم والاهتمام به فالظاهرات العلمية كثيرة في الحضارة الإسلامية، تلك هي أنّ علماء بجانب كثرة مؤلفاتهم وعمقها فقد أنفقوا وقتا قصيرا في تأليف بعضها. وهذا أمر مهم وهو يمثل انتصارا آخر بجانب استكثارهم الذي لم يفتقد الأصالة والجودة والعمق في الإنتاج وتلك كلها ظواهر فريدة تميزت بها الحضارة الإسلامية، بعض ما يتميز به المجتمع الإسلامي الذي أقامه الإسلام دين الله

(52) الذخيرة، 1ـ2/586.

وهو الطريق الوحيد السديد المديد ولا نجاة بغيره ولا حضارة غلابة ولا إنسانية إلا في ظله وبه سعادة الدارين. والأمثلة على هذه الظاهرة متوافرة متكاثرة ظاهرة تجد فيها العديد خلال التوجه بتلك المؤلفات.

ألف الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (776هـ) كتابه أعمال الأعلام، وهو ثلاثة أقسام، كلّه أو بعضه في أربعين يوما(53). والقسم الأندلسي من هذا الكتاب مطبوع في أكثر من ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ويعتبر من المراجع المهمّة في التاريخ الأندلسي وفيه تحليلات ذات قيمة تاريخية كبيرة. والمثل التالي يؤكد القبول عدّة تاليف هذا الكتاب وابن الخطيب نفسه ألّف كتاباً آخر خلال فترة قصيرة جدا وسمّاه" روضة التعريف بالحبّ الشريف" عارض به ديوان الصَّبَابَة في المحبّة وأخبار أهلها لابن أبي حَجْلة التلِمْساني (776هـ) وعرض فيه ابن الخطيب أفكاراً فلسفية ونظرات صوفية في محبّة الله تعالى فتحدّث فيه عن حبّ الله سبحانه المبلِّغ إلى قربه المستدعي لرضاه وحبّه المؤثر بالنظر إلى وجهه. ويا لها من غاية تلقى رحلة المتّصف بها بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية"(54).

وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك أيضاً في رسالة بعث بها إلى صديقه ابن خلدون مؤرّخة في جمادى الأولى سنة 769هـ، ووصفه فيها بكونه"كتابا ادّعى الأصحاب غرابته "(55). وهذا يعني أنّ الفراغ من تاليف هذا الكتاب كان في بداية العام المذكور هذا أو قبله. وقد نشر كتاب" روضة التعريف

(53) مقدّمة القسم الأندلسي.

(54) روضة التعريف، 1/39، 98.

(55) التعريف بابن خلدون، 121.

بالحبّ الشريف" بتحقيق علمي في مجلدين يقعان في أكثر من ثمانمائة صفحة يشغل النصّ منها ما يزيد على ستّمائة صفحة مزوّدة بتحقيقات المحقّق.

ورغم مشاغل ذو الوزارتين ابن الخطيب - وزير غرناطة الأول أو رئيس وزرائها - فقد استغرق تأليفه لكتاب" روضة التعريف" قرابة شهرين ويشير ابن الخطيب نفسه إلى ذلك في خاتمة الكتاب فيقول: " وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار، ويقرب الأبرار، ويقيل العثار، ويقبل الأعذار، أنّ مدّة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين، بين كتب وكتم، وابتداء وختم، مع ما يتخلّل الزمن من حمل، لو رمي به رَضْوَى لتدعدع، أو أنزل على ثبير لخشع، من خشية الله وتصدّع. بمداراة عدوّ قد تكالب على الإسلام، وسياسة سواد صمّ عن الملام وتعدّى حدود النهى والأحلام. وارتقاب هجوم جيش الآجال، وراية الشيبة من الأعلام، وقد أنذر الفجر بانقشاع الظلام، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام "(56).

وإنّ العلاّمة ابن خَلدون(808هـ) معاصر ابن الخطيب وصديقه كتب مقدّمته الرائعة الذائعة الصيت الشهيرة باللغة العربية واللغات الأخرى، التي نقلت إليها سواءٌ التي تعتبر سبباً كبيراً في مكانته وشهرته العلمية في خمسة شهور وهي تقع في نحو ألف صفحة من القطع الكبير.

ويقول ابن خَلدون في نهاية مقدّمته: " أتممت هذا الجزء الأول (المقدّمة) بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدّة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثمّ نقّحته بعد ذلك وهذّبته

---

(56) روضة التعريف، 2/ 709.

وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوّله وشرطته: وما العلم إلاّ من عند الله العزيز الحكيم"[57].

فهلاّ يستحقّ منا هذا السلف الكريم التقدير والاحترام الممزوج بالإعجاب الداعي إلى الاقتداء في هذه الضخامة والوفرة والثراء والإنتاج مع الدقّة والعمق والأصالة، كطابع غلاّب. ولعلّه هو أيضاً محفزاً لنا إلى دراسته ونشره والانتفاع به بكلّ وجه. وأنّ الذي ذكر لم يكن من باب الحصر بل على سبيل الاستشهاد والإشهاد والتمثيل حسب للتدليل والإشارة للعبرة.

تلك ظاهرة من ظواهر الحضارة الإسلامية الفاضلة وصورة من صور المجتمع الإسلامي الكريم الذي عاشه المسلمون طوال القرون واستمتع بخيره كل من حملته أرضه الطيبة فوجد فيه إنسانية وفضلا وأمنا وهو ما لم يجده حتى لو عاش في مجتمعه الذي ينتمي إليه بدينه وتتوفر بينهما العلائق والوشائج والمنافع.

كانت تلك الصور تمتع بها العالم الإسلامي وأثرت الإنسان ووفرت مثلا ورسمت طريقا، إنها نبت أصيل وغرس جميل وأزاهير فواحة وغصون حمالة وأشجار باسقة، بداها بليل وظلها ظليل ثمارها يانعة ومساحاتها واسعة كثيرة الإمداد وفيرة الإنتاج مباركة الأكل وارفة الأفياء مليئة الدلاء راسخة في أرض الخير راسخة الجذور وأصلها الكريم ثابت وفرعها السامق في السماء:﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾.[سورة سبأ، 15].

---

(57) المقدّمة، 1/ 277، 4/ 1475.

الأصالة العلمية وآفاقها

في الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية غنية بإنسانيتها وإنتاجها وخيرها العام، وبظواهرها الحضارية المضيئة. وبقدر تفردها وامتيازها فهي كذلك مديدة في حالها طريفة هفيفة، تسمو بآفاقها على ما عداها وتسكب في النفس الإنسانية الطمأنينة والسعادة وفي جوانب الحياة الدفء والذوق والجمال والأناقة.

وهذه وغيرها مما أقام الإسلام في مجتمعه، وهي مقومات الحضارة الحقة التي لا توزن فحسب بارتفاع العمارات ولا بتوفر أسهل وأسرع المواصلات ولا بالتوصل إلى الترف المعيشي والمنجزات والتنظيمات أو التمكن من الصعود إلى الكواكب المجاورة أو البعيدة. فهذا كله وأمثاله مما لا يهمله الإسلام ولم تخل منه حضارته بل يوليه العناية ويحث عليه، بأكرم أسلوب وأنضر وجه وأجمل غاية، من غير أنانية ولا اعتساف ومن غير غرور أو استعلاء وبلا مغالاة أو استكبار، إلا أنّها تبقى ماديات مجردة بجانب عدم كفايتها تضل وتغرر إذا لم ترتبط بالله ولا يتولاها إنسان رباني. فهي بمفردها لا تغني الإنسان ولا تكفيه في الدنيا فضلا على الآخرة، بل تهلكه وترديه، فليست هي أساس السعادة ولا عنصر ارتواء لكيان الإنسان ولا احتواء لفطرته ومتطلبات نفسه التي فطره الله عليها وأحياه بها متجهة إلى الله رب العالمين، فضلا على أنها لا تنتظم كل دنياه ولا تربطه وحدها بآخرته. وقد يمكن أن تصل إليها أو شيء منها التجربة العلمية بشكل ما في هذا الإطار أو نحوه بما وهب الله هذا الإنسان وأمده به وسخر له ومكنه وجهّزه: ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾، ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾.

إن بيان الإسلام لقيم الحضارة وأسسها وطريقة بنائها سبق باق، لم ولن يدركه الإنسان بدونه، لا تصورا ولا سلوكا، رغم وجود المثال منذ أنزل الله هذا الدين فوفر الشواهد في حياته ومع التمكن العلمي الذي وصله. وهو دليل على ذلك وعلى أنّ الإنسان لا يسعه بحال الشرود عن الله تعالى ولا العيش بعيدا عن شرعه ولا الحياة بمعزل عن قرآنه الكريم: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض إلا إلى الله تصير الأمور ﴾. (سورة الشورى، الآيتان 52، 53).

علما أنّ الحضارة الحالية ـ بمنهجيتها وإنتاجها العلمي والتقني ـ ثمرة تلمذتها الوحيدة على جوانب من الحضارة الإسلامية وبعض علومها التي ظهرت، يوم ما ملكت بديلا للأخذ عن العالم الإسلامي، بالإجبار وبلا أدنى اختيار، إذ ليس من باب للعلم غيره، رغم العداء الصليبي ـ للخلاص من الجهل المكين والعتمة الضاربة الجذور والأمية الشاملة المطبقة والشقوة القاتلة المغلقة، تلمذة لا في العلوم وحدها بل وكذلك التفتح للعلم والتعلق به وتوفير الرغبة فيه والإحساس بضرورته وتعلم منهجيته التي سبقت نقل العلوم من الحضارة الإسلامية إلى الغرب. بما حكت هذه الحضارة بأجوائها ونسائمها من جدر سميكة كانت في الغرب مدعاة للفخر بالجهل والتعالي بالأمية والاعتزاز بالهمجية فما كادت تفيق من ذلك حتى عطّلت كثيرا من تلك الجوانب المنقولة ولم تغذ إلا بعض حاجتها بما حجبت من مقومات الحضارة الإسلامية وإشعاع النور الرباني أن ينير دياجيرها فلم تترك لمروره

دربا إلا ذلك النفق الصغير مرت منه بعض العلوم البحتة صرّفتها كيف تريد .

لكنها أظهرت بعدها لكل ذلك عقوقا، من ناحيتين. برفضها الأصول التي قامت عليها الحضارة الإسلامية الناشئة في أحضان الإسلام وتنكرها لكل معنى إسلامي حملته منقولاتها، فحاربته دعوة: العقيدة والشريعة وما يرتبط بهما، وحاربته أمة: جماعة وأفراداً وما يتصل بهما، دون هوادة، مسلطة عليها كل سلاح، تالفة كل ذمة، متنمرة من غير مبالاة.

ومرت القرون طويلة زمن عملية الاتصال والنقل ـ من العالم الإسلامي، خلال معابر كثيرة معروفة أوفرها الأندلس ـ تدل على عمق غور الهوة التي كانت فيها البلدان الأوربية، انتشت من خير تلك الحضارة الإسلامية في هذا الجانب، فغرها ذلك التحصيل المقطوع ـ للحرمات وانعدام الأصالة بسبب البعد عن الله ـ مرتين، حين تكبرت وطغت إذ ملكت الوسائل العلمية، مرة بغت لشرودها عن الله وتنكرت لكل أوامره مبيّنا في شرعه وما جعله مركوزا في فطرته فتعالت على خلقه وبغت عليه ـ وتلك عادة الطغيان ـ فازدادت انحرافا وانجرافا وارتكبت من الآثام ما أورثها المرض، وهو عاقبة البغي، ومرة أخرى حين تنكرت لأساتذتها، وبدل أن تعترف لهم وتقدر وتقدم واجب الفضل لذلك العالم الإسلامي أساءت إليه وبغت عليه وحاربت دينه الذي لولاه ما كانت حضارته التي بنقل جانب منها تعلمت وتنعمت بثمارها.

فلو أنها لم تنقل بعض الثمار مجردة ونقلتها بأصولها وشمولها لجرت مجرى العقلاء ونالها ما نال الأتقياء، لكنها بما فعلت أصابها بما يصيب

العصاة. ولعل فيما يجري الآن في جنبات حياتها درس قوي يفجر الفطرة فيها ويلهب شوقها ويرهف حسها ويورثها إدراكا ونظرا يقودها إلى الله تعالى فتتوب وتؤوب إليه بعد الشرود الطويل مبصرة مطمئنة.

لكن استقلال هذه الحضارة الحالية المادية بالإنسان واستغلالها له قد يودي بأحدهما أو بكليهما. فهي لا تمت لإنسانيته بصلة وإن أغرقته ببهرجها وتبرقعت وزيّنت أمورا بمساحيقها. لأنها لا تتعامل معه لتسكب فيها من المعاني الفاضلة التي تجعل من تلك التجارب العلمية نفسها عوامل ارتقاء وإعلاء تشرف في الحياة بوجه الإنسان الرباني، وهذا أمر لا يتم بمعزل عن جوانب الحياة الأخرى التي لا بد للوصول إلى هذا المستوى والأفق الرحيب والسمت الكريم أن ترتبط كلها وتقوم بشريعة الله عاملة بها. وهذا يجعلها سامية عالية لا تدرك في تحقيق حياتها الإنسانية الفاضلة الطاهرة، وليس فقط أعم نفعا وأقوم طريقا وأجود خيرا، بما يمنحه الإسلام من قابلية واستعداد ووجهة وما يغرسه ويرعاه ويستنبته ويبنيه ويعليه في نوعها ومستواها ووفرتها. وقد فهم ذلك من المسلمين بعض الباحثين الأوربيين فقال أحدهم بأنّه لو قدر للحضارة الإسلامية الاستمرار لوصلت الحضارة الحالية اليوم إلى ما سوف تصله بعد خمسة قرون. ومع أنه قصد جانب العلوم التجريبية والمظاهر المادية والعمرانية، فإنّ الحضارة الإسلامية أعم وأشمل وأقوم وأكمل. فقد نعتبر ما عداها من هذا اللون المادي من الحضارة قد يأتي - ولو بمستوى أقل وبحدود أضيق وتقدم أبطأ - نتيجة الجهد المبذول المألوف فكيف يكون بالإسلام علو وسمو وتقدم وإشراق وطهارة وإنسانية ربانية في هذه النواحي وغيرها وهي مترابطة في الحالتين في حالة العصيان

والضلال كما هو في الحضارة الغربية والعياذ بالله وفي حالة التقوى والتوجه إلى الله في حالة الحضارة الإسلامية والمشتكى إلى الله من فقدانها داعين إياه تعالى عودا قريبا إن شاء الله تعالى.

فبناء الإنسان كما يريده الإسلام ينتج أعلى نوع كريم وفريد من المنجزات المادية ـ وهي إحدى ثمار حضارته الفضلى، وليست أهمها ولا أعلاها لكنها ترتبط به دائما مثل الجوانب الأخرى ـ التي لا يعتبرها الإسلام إلا أن تقوم على أساس من مُثُله. وهي ليست أروع ما في الحضارة الإسلامية بل إنها أحد المظاهر التي تعتبر أيضا وسيلة يلزم الإسلام أهله بكيفية استعمالها وسلوك السبيل فيها، طلبا واستنباتا ونتيجة واستعمالا.

ومع تقدم المسلمين في هذا اللون من الحضارة والسبق الزمني الذي أصابوه فيها مثل غيرها ـ بفضل الله والتزامهم بشريعته ـ لم تدخل إلى نفوسهم الغرور ولا الغموض في فهم حقيقة ارتباط هذه الثمار في دائرة المفهوم الحضاري الإسلامي الذي عاشوه ومارسوه وتعاملوا به. فكان بناء الإسلام للإنسان على مُثُله الفاضلة هو الحضارة الحقة ـ قبل وبدون أي اعتبار ـ التي لا تكون الماديات وحدها فيها أساسا ولا قياسا بل جانبا يسعى إليه المجتمع المسلم ولغيره.

وتبقى هذه الماديات مهددة إذا استقلت في الساحة ولم ترتبط بمثل، ولذلك لم ينفك المجتمع المسلم من هذا الفهم الحقيقي الذي تعتبر أمته أسبق الأمم بهذا الفهم الذي لا تكاد تود الحضارة الحديثة الانتفاع به عمليا وربما حتى نظريا إلا شذرات مبعثرة رغم قوة الدافع الذي يجبر على انكشاف الظلمة أمام عين الإنسان بأقل وعي. وهذا يعطي فكرة عن نوع

الضلال وطبيعته الذي يصيب الإنسان حين يبتعد عن الله تعالى والتي تعجز الحقائق الدامغة والوقائع البالغة والأحداث السابغة أحيانا كثيرة أن تقنعه يقينا. وقد قص الله تعالى في القرآن الكريم نماذج متعددة من هذه الألوان، كما أرجو أن يتناوله الحديث في موضوع قادم إن شاء الله تعالى. وهذا أيضا يؤكد ـ لمجرد النظرة والتصور والتناول ـ أن لا بد من العناية بالإنسان وحسبما أراد الله وأنزله وهو أعلم بمن خلق: ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾.

ورغم بيان هذه الحقيقة مبكرا بالرسالة السماوية واضطلاع أحداث الحياة التي تلفت النظر وتنبه الفكر وتعلق بها البصيرة إذا فاتها الأمر بأي مقدار والضرب على رأس الإنسان الغافل وعلى منافذ نفسه ومغاليق قلبه بمطارقها إلا أنّه ما يكاد يتفهمها أو يعيها، وقلّما يعيها وهو عن الله بعيد، ولقد ضرب لنا الله تعالى في القرآن الكريم الأمثلة العديدة. ومن هنا يجعل هناك ضرورة أخرى لتولي الإنسان وجهه شطر الهداية الربانية ليصح فهمه ونظره وتناوله للأمور وسلوك المواقف المتزنة السليمة التي لا يمكن له أن يعيها أو يتفهمها إلا بالوقوف على بداية هذا الطريق طريق الهداية الوحيد طريق الله المستقيم.

فالإسلام مفتاح ليس للبناء وفهم طريقته فحسب ولكن أيضا إدراك لحقيقة هذا الإنسان ونفسه وحكمة وجوده وفهم الحياة ووقائعها والتصويب في تصوراتها ودقة موازينها وصفاء وقوة في توفيره الوقوف هذا الموقف نتيجة وبسرعة حين يتوجه إلى الله تعالى فيعرفه ويرتضي شرعه ويعبّد نفسه له جلت قدرته. فتكون حضارته وعلمه مهيأ لطريقه في هذه الدنيا

ومعمرا لها ومعبِّدا إياها يقوده نديا بهيا إلى الله يوم الدينونة، يربح دنياه ويربح أخراه، ينعم بفضل الله عليه سعيدا برضاه وقد أسبغ عليه سائر النعم وأكبرها رضوانه: ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(التوبة، 72).

والحمد لله رب العالمين

كثرة المؤلّفين والمؤلّفات

ثراء المكتبة الإسلامية

إنّ بنية المجتمع المسلم وهي بنية متميزة أثمرت ثمارا عزيزة نفيسة غزيرة وحية، إنسانية رفيعة في كل اتجاه وميدان وعلى أي مستوى كما وكيفا ورفعة وأصالة وعمقا بمقدار لا يمكن أن يصل إليه لأي مجتمع مهما توفرت له من الأسباب إلا بهذا الدين وبدونه لا يسمو إليه الفكر الإنساني تصورا فضلا على الارتقاء إليه سلوكا والسير به إنسانية فالمجتمع الإسلامي يقوم على الإسلام شريعة وعقيدة وارتباطا بالله تعالى ويعمل لرضاه حريصا على القرب منه باذلا كل شيء لأجله مسارعا لأمره سالكا لدربه متمسكا بالعروة الوثقى والطريق المستقيم الفريد على الدوام وذلك يرتقي بالإنسان ويفتق الطاقة ويعليها ويباركها فيقدم نفسه قربانا من أجل تحقيق أي خير لهذا الدين وأي نصر له وذلك يجعله يحيا ويموت من أجله ليحظى برضوان الله فهو دوما في عطاء من غير مكافأة أو جزاء غير رضوان الله :﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة، 72).

كان هذا عاما في العالم الإسلامي في بقاعه وأصقاعه فكثر الخير وساد العمران وعم العلم جنبات الحياة وكان من ذلك الإنتاج العلمي كثرة أعلام وثراء إنتاج وضخامة مؤلفات في كل فن ومعرفة وتخصص خيرا نافعا مفيدا. وكان نصيب الأندلس من ذلك كثير شارك فيه بنية وكثرة مثل بقية

العالم الإسلامي.

كثرة المؤلفين والمؤلفات:

ودون شكّ فإنّ مثل هذا الجوّ العلمي الذي عاشه بلد الأندلس متمتّعا بالخير والمعرفة الحقّة ينتج شمولا في طلب العلم وكثرة من العلماء ووفرة في المكتبات واهتماما باقتناء الكتب وشغفا للاعتناء بالعلم وسعيا في طلبه.

ولعلّه يجمل التوقّف هنا لبيان ثلاث ظاهرات في الأندلس تتعلّق بهذا الموضوع، وهي متماثلة في أنحاء العالم الإسلامي الواسع.

أوّلا: ظاهرة كثرة عدد الكتّاب والمؤلّفين في كلّ ميدان خلال العصور.

ثانيا: ظاهرة الإكثار من الإنتاج بالنسبة إلى كلّ مؤلّف وفي عدّة ميادين، مع الاحتفاظ بالأصالة والعمق فهيّأ ثراء في الإنتاج العلمي المتنوّع الحقول وسيلا من الكتب متدفّقا.

ثالثا: ظاهرة كثرة عدد الأجزاء بالنسبة إلى الكتاب الواحد، مع إنتاج العديد من الكتب ذوات الأجزاء الكثيرة، لمؤلّف واحد.

أوّلا: كثرة المؤلفين

إنّ المناخ الفكري الذي وفّره الإسلام في بلد الأندلس - فعله في غيره من البلدان الإسلامية - أوجد كلّ مأثرة علمية، بجانب مآثره الأخرى. وإنّ عقيدة جعلت المعرفة الحقّة، أخذها وبذلها، جزءا منها، حريّ بمجتمعها أن يكون كلّ فرد فيه، ذكرا أو أنثى، كبر أو صغر، متمتعا بمستوى علميّ كريم وإلمام لائق سليم. ولا يصحّ الهبوط عن المستوى الأدنى الذي يحرم صاحبه الاستمتاع بفهم هذه العقيدة الإسلامية التي لا يحملها أو يفهمها جاهل.

ولا يمكن له تذوّقها أو يحس بنداها، نشاطا للخير وهمّة، للسعي وراءه ومن كلّ لون.

وهذه العقيدة أكثر إيناعا وأزهر إنباتا في البيئات المثقّفة أو المستعدّة للتثقيف وأقرب إلى الإنبات، في جوّ لها سليم النفس طاهر المعدن، وإن أصيب بالصدأ فهي كفيلة بجلائه. وحين تحلّ مجتمعا جاهلا يحلّ فيه العلم والمعرفة. وكما هي في الأرض الخصبة أكثر إنباتا وأسرع إيناعا وتزيد من خصوبتها فإنّها تعطي للتي حرمت الخصوبة طاقات الإنبات وأسباب النماء.

وحين يكون طلب العلم فريضة وعقيدة يحبّها المؤمنون بها بحرص ورغبة يسعون إلى تحقيق متطلّباتها دونما مغنم قريب، فإنّ الغرس سيكون ثابت الأصل سامق الفرع طيّب النبع دائم الإنبات مستمرّ الجني.

وحينما يفتح الميدان للاندفاع نحو الأعلى يجعل حدّا أدنى لا يصحّ بحال السقوط عنه. ويغدو الوقوف عنده مذموما منذرا بالخطر، والواقف حول الحمى يوشك أن يرتع فيه [58].

ومن تكون هذه حالته يجد نفسه في حرج مع معتقده الذي يحرص بذاته الوفاء له، بل بذل الجهد ليكون مسيره نحو المقدّمة، دائم النظر نحو سلّم الارتقاء ساعيا له حثيثا. لأنّه تعلّم بأنّ الميدان واسع وللشوق متطلب جذاب وللارتفاع مجال لا يقف عند حدّ ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق

---

(58) من حديث شريف.

كلّ ذي علم عليم﴾[59] . ولكن ذلك يؤخذ بدقّة وتأكّد ليقام البناء على أساس متين وقاعدة سليمة يحتمل الشموخ "إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإنّ المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"[60]. لذا عمّ العلم فشمل المجتمع بكليته، نساءه ورجاله، مهما كانت المهنة واختلفت المسؤولية وتفاوتت المكانة. كما شمل الاهتمام كلّ العلوم والمعارف ينتفع بخيرها وتؤتي ثمرها ويستطاب أكلها.

يفتح الوليد عينيه في بيته ليسمع أنغام المعرفة تنساب هادئة رقيقة حلوة رفيقة، يرى مجالس العلم معقودة لأفراد الأسرة ومن يختلف إليها، وكانت الأسرة تورث العلم لأبنائها جيلا بعد جيل. وكم من عالم درس على أبيه، منه تلقّى وعلى يديه ارتقى في مدارج المعرفة وعلى عينيه تربّى وفي مجالسه تخرّج. وفي بيته التقى بغيره من الشيوخ الأساتذة الذين كانوا يرتادون مجلسهم يتعلّمون ويعلّمون، فيرضع الوليد حبّ العلم، ساعة يفتح عينيه، ويغدو لديه فطرة تعيش معه وضرورة لا غناء عنها بحال ولا مال.

والدعوة إلى التخصّص، كالأصالة والأمانة، من متطلّبات مجتمع هذه العقيدة، خدمة لها ونفعا لأهلها وللآخرين. وفي مثل هذا الجوّ المتفتّح النشط تزدهر المعرفة الخيّرة ويسير المجتمع في دربها، فيكثر فيه العلماء في كلّ ميدان، وأهل الفكر من كلّ لون، على مرّ القرون وتلاحق الأجيال. وينتج أعدادا ضخمة في كثرتها ونوعيتها، أفقا وعمقا، ودقّة وضبطا، وولعا

---

(59) سورة يوسف، 76.

(60) حديث شريف.

وشوقا. وهذا يجعل السعي وراء العلم شديدا، في مجتمع العقيدة هذه، في كلّ أحوال الإنسان عسرا ويسرا، ضيقا وانشراحا، منشطا ومكرها، ومهما اختلفت المهنة وكانت طبيعة المكان[61].

كما تنتظم العقيدة هذا المجتمع وتقوده في الدرب الفرد ذي الثقافة المؤمنة بالله وشرعه، الصادقة في نفسها ومع الناس، الأصيلة في منبتها والأساس، الرحبة في أجوائها والآفاق، الواضحة في الدافع والهدف، النظيفة في المنطلق والانسياب، المتفاعلة في النفس والمجتمع، المتسامحة في حقيقتها والواقع، المتفتّحة في الأخذ والردّ، الحريصة على البذل والعطاء، المتنامية في كلّ شعب ودرب. وهي دائما خيّرة تبذل للعلم وتبذله وتسعى حثيثا للحصول عليه، وإن شقّ طريقه وطال مسيره. كما تسعى بالحرص نفسه لتقديمه إلى الآخرين، وربما دون مقابل[62]. ولا يغيّر من هذا الحكم وجود قلّة من حملة العلم تخلّفوا عن هذا المستوى. والحديث هنا عن الخط العام والتيار الغالب في الكثرة المتوافرة صاحبة الجوانب الحسنة الخيّرة التي أظهرت حقيقة هذا المجتمع وأعطته طابعه الأصيل، وما عداه فشاذّ ومنبوذ ومذموم.

لذا لم تتوقّف في هذا المجتمع للعلم حركة أو يتقهقر منه ركب أو تذهب عنه رغبة أو تفتر له همّة في أيّما عهد، وإن ضعفت أحواله أو اهتزّت قوّته أو اختلّت مكانته أو اكفهرّت أجواؤه، سياسيا أو اجتماعيا، في الخارج والداخل وبمقدار تمسكه بهذه العقيدة وفهمه لمقتضياتها ووفائه

---

(61) أعلاه، 43 وبعدها.

(62) اعلاه، نفسه.

بمتطلباتها. فهل نتوقّع في مثل هذه البيئة الصالحة غير الكثرة الكاثرة من الأعلام في كلّ ميدان، ترتفع راياتهم وتزدحم مرافقهم وتتدافع مناكبهم وتغذ مواكبهم ويتجاوب تحرك أقلامهم، متعاونة متصاونة ومتواضعة لتشيد بناء العلم والمعرفة وتقيم مناراته. فكثر عدد الشيوخ الأساتذة والحفاظ في كلّ فنّ وصوب في كلّ العصور. لكلّ مكانته وعلميته واختصاصه وخصائصه عاملا على إغناء التيار وإرفاده، نقيا صافيا دائم الجريان، إليهم كانت الرحلة في طلب المعرفة من كلّ مكان.

ثمّ نلحظ كثرة عدد الشيوخ الذين يتلقّى عنهم كلّ دارس ويأخذ العلم في حلقاتهم، حتى ليصل عدد شيوخ أحدهم إلى المئات، بل قد يعدّ من اتّصل بهم أو روى عنهم إلى الألف أو يزيد. ولقد وضع العديد من العلماء الكتب، وترجموا فيه للشيوخ الذين درسوا على أيديهم، فكان لكلّ من هؤلاء العلماء كتاب ألف للحديث عن شيوخه ككتاب برنامج شيوخ الرعيني وغيره. وحدث أن وضع البعض كتابا في ترجمة شيوخ غيره من العلماء. كما فعل القاضي عياض (544هـ = 1149م) حين ألّف كتابا في شيوخ أستاذه أبي علي الصدفي (514هـ). ثمّ جاء ابن الأبار فوضع كتابا آخر في أصحاب أبي علي الصدفي(تلاميذه ومعاصريه) وسمّاه " المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي "(63).

وهذا الشرح، مع نظرة في البحث الحالي سلفت وأخرى تلت، تفسّر ضخامة جموع العلماء والمؤلّفين في أيّ حقل وعلى تتابع السنين. فزهت بهم مدن الأندلس كافّة وعظمت حضارته.

---

(63) المعجم، ابن الأبار، المقدمة (لام).

ثانيا : كثرة الإنتاج

إنّ ما مرّ بنا في الفقرة السابقة، وما نجده مبثوثا في ثنايا هذا البحث يكوّن لنا نظرة عن الكيان العلمي الذي أوجده الإسلام في مجتمعه بالأندلس، مثل غيره من مناطق عالمه. ويصبح ليس صعبا تصوّر نوعية المستوى الفكري والحالة العلمية وطبيعتها التي توفّرت لدى مسلمة الأندلس.

وجدت للعلم عادات وأعراف، وللعلماء سمت وسمات وأخلاق ومسؤليات. إنّ من يتصدّر مجالس التدريس لا يحتجب عن المجتمع بل يقف مع أفراده في قضاياهم ويكون على علم بأحوالهم. بل كذلك يتصدّر حلّ مشاكلهم وقيادة تحرّكاتهم. فطالما كان أهل العلم كهفا للناس وملجأ. من ذلك ما يذكره ابن بشكوال (578هـ) عن أبي القاسم عبد العزيز بن محمد بن عتّاب بن محسن، من أهل قرطبة (491هـ = 1098م)، بأنّه " كان رحمه الله فاضلا متصاونا وقورا مسمتا مهيبا معظّما عند الخاصة والعامة كريم العناية بمن اختلف إليه، قاضيا لحوائجهم مبادرا إلى رغباتهم نهّاضا بتكاليفهم حافظا لعهدهم، وصفه لنا بهذا غير واحد ممّن لقيه وجالسه "[64].

وأبو الوليد ابن رشد الأكبر الجدّ (520هـ) فقد " كان الناس يلجأون إليه ويعوّلون في مهمّاتهم عليه، وكان حسن الخلق سهل اللقاء كثير النفع لخاصّته وأصحابه، جميل العشرة لهم حافظا لعهدهم كثيرا لبرّهم "[65].

---

(64) الصلة، 372 (رقم: 796).

(65) الصلة، 575 (رقم: 1270).

وكذا ابنه أبو القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد (487ـ 563هـ) فقد" كان خيّرا فاضلا عاقلا ظهر بنفسه وبأبوّته محبّبا إلى الناس، طالبا للسلامة منهم، بارًا بهم "[66].

ومثلهما ابن رشد الأصغر الحفيد (595هـ) الفيلسوف الذي" تأثّلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرّفها في ترفيع حال، ولا جمع مال إنّما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامّة "[67].

كذلك كان أبو عمر ابن المكوى أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي (324ـ 401هـ)" كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت إليه رياسة العلم بها أيام الجماعة "[68]الذي" انتفع الناس به ووثّقوه في أمورهم ولجأوا إليه في مهمّاتهم "[69].

علّم الإسلام أهله بأنّ العلم ليس لملء الرؤوس، بل قبل ذلك لتهذيب النفوس، سلوكا ينتظم كلّ الأمور. فالعلم سلوك في النفس والأهل والمجتمع، وفي كلّ مكان ومع كائن من كان وفي كلّ الظروف والأحوال. وهكذا كان علماؤهم، فاستأهلوا أن يكونوا من أهل العلم بحقّه. ليس ذلك للعلماء فقط بل لكلّ فرد. فالعالم الحقّ الذي يعمل بما يعلم ويبلّغ للناس علمه وعليه مسؤولية عدم تعليمهم. فكأنّه هو المكلّف أن يذهب إلى الناس وهم مكلّفون بالسعي إليه. ولعلّ مسؤوليته أكبر وعليه السعي

---

(66) الصلة، 83 (181) . المغرب، 1/ 162. بغية الملتمس، 168 (369) .

(67) التكملة، 2/ 554 (1497) .

(68) الصلة، 22 (38) .

(69) الصلة، 23. وعن أمثلة أخرى انظر: الصلة، 323 (694) .

إليهم أوجب، فينفع نفسه وينفع غيره، باذلا لهم جهده وعلمه. وتلك مهمّة العلم في الإسلام، يؤدّيها العلماء دون توان أو كلل. (من كتم علما)

وهذا ممّا يفسّر لنا شيوع العلم والمعرفة، وكذلك يعين على وصف الشعب الأندلسي بأنّه متعلّم، وربما انعدمت فيه الأمية تماما[70]، مثل بقية مناطق العالم الإسلامي. ولا بدّ أنّه كانت لهم يوم ذاك طريقة معيّنة في تعليم القراءة والكتابة وهو أمر يستحقّ الدراسة.

وعلى ذلك الأساس كان اكتساب العلم وطلبه وبثّه عن كلّ وسائله، منها الكتب اقتناء وتأليفا. فأولئك العلماء هم الأرض الطيبة" قبلت الماء فأنبتت " الخير الوفير كما وصفهم حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي يرويه مسلم في صحيحه "[71] إنّ مثل ما بعثني الله به عزّ وجلّ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله وتفقّه بما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ".

يذكر الحميدي في جذوته عن ابن حزم القرطبي، السابق الذكر[72]، بأنّه" كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب

---

(70) راجع: الحضارة الإسلامية في الأندلس، 27 ـ 28.

(71) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، 4/ 1787 ـ 8؛ جامع الأصول، 1/ 284.

(72) أعلاه، أمثلتها كثيرة.

والسنة، متفنّنا في علوم جمّة عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك متواضعا ذا فضائل جمّة وتواليف كثيرة في كلّ ما تحقّق به في العلوم. وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنّفات والمسندات شيئا كثيرا، وسمع سماعا جمّا "(73).

ولذلك ما استحقّ حمل العلم من تخلّف عن الصفات الأساسية التي تعتبر من مستلزمات العلم وضرورياته. وكذلك حدّث أهل الأندلس بقول مالك بن أنس: " لا يحمل العلم عن أهل البدع كلّهم، ولا يحمل العلم عمّن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم، ولا يحمل عمّن يكذب في حديث الناس وإن كان في حديث رسول الله ﷺ صادقا لأنّ الحديث والعلم إذا سمع من العالم فقد جعل حجّة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى "(74).

وكتب التراجم الأندلسية ـ كما مرّ بنا ـ لم تكن تثني على علم العلماء واهتمامهم بجمع الكتب واستيعابها والتأليف فيها وحده بل وعلى صفاتهم وأخلاقهم التي تبدو وكأنّها شروط أو جوانب من العلم ذاته لا تنفصم.

ولوضوح هذا الأمر عند مؤلفي" التراجم الأندلسية" فإنّهم لم يتعرّضوا للجانب العلمي عند المترجم فقط وإنّما إلى سلوكه وأخلاقه وصفاته

---

(73) جذوة المقتبس، 308 (708). لعلّ الإشارة في جمع الكتب هنا تصلح لوصف مؤلفاته أيضا.

(74) نفح الطيب، 2/ 507.

الأخرى[75]، التي تتحكّم في تحديد مكانته الاجتماعية. ويتردّد الوصف "بالعلم والصلاح" [76]لحملة الكلمة إشادة وبيانا وشارة مميّزة. وتجرّد العالم المترجم به من فضلها وخيرها يجعله ـ رغم علمه ـ مدعاة للحظّ من قدره أكثر. وليس احتساب هذا السلوك مقصورا على تصرّفاته الخاصّة بمفرده. بل في تعامله مع الآخرين، سيما في الأحداث والمواقف، ودونما مواربة أو خوف. فيذكر ابن بشكوال في صلته، خلال ترجمة سعيد بن عثمان بن البنا، قول أحدهم: " من قبّل يد سلطان فكأنّما سجد لغير الله عزّ وجلّ "[77]. وورد وصف الكثير من العلماء بالصلابة، فكان أحدهم "صليبا في الحقّ"[78]، أحكاما ومواقفا.

كان هؤلاء العلماء في كلّ ذلك صادرين عن عقيدتهم الإسلامية وبها ملتزمين. فيها منها تكوّنت دوافعهم العلمية وفي قالبها صيغت أهدافهم. فخدموا الخير وعملوا للحقّ ووقفوا عند حدوده. كانوا في عملهم العلمي يبحثون عن رضا الله تعالى راغبين فيما يقرّبهم إليه ويكسبهم العتبى والمثوبة[79]. وتلك كانت تجارتهم يعملون لإثرائها ويسعون لإنمائها. كانوا أصحاب رسالة وحملة أمانة يعملون بجدية وهمّة لأدائها. وبهذا الصنف

---

(75) قارن: مقدّمة الصلة (ع).

(76) التكملة، 1/ 301 (821) .

(77) الصلة، 221 (503) .

(78) انظر مثلا: الصلة، 23 (38)، 133 (270)، 473 (1019)، 516 (1126) . التكملة، 1/ 301 (821)، 2/ 823 (2010) ؛ الإحاطة، 1/ 196؛ تاريخ علماء الأندلس، 1/ 245.

(79) أعلاه، 48 وبعدها.

من الناس، الفعول للخير القيوم على الفضيلة، تعمر الأرض وتمسك بعمرانها محافظة فتتسع بالنعم وتنشأ الحضارة وتوجه لإنسانيته لأنّه صنف مرهف الشعور بالمسؤولية حريص على معاني الخير، بذاتيته أصيلة معينها غير نضوب، تمسك على الإنسان كرامته وتعمل على صيانة إنسانيته وإعلائها، وكل ما عداها سراب كذوب وظلّ زائل.

فالعلم وراثة النبوّة و" إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، إنّما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"[80]. فالعلماء يؤدون حقّ الإرث، تلقّيا له وسعيا في تحصيله وحرصا على إلقائه.

ومن جميل الأمثلة موقف أبي العباس ابن الصقر الأنصاري الخزرجي (المريّة، 492هـ مرّاكش، 569هـ) أصله من سرقسطة الذي جرى ذكره في هذا البحث غير مرّة[81]. لأوّل وصوله إلى مراكش تعرّف عليه أحد سراة لمتونة، وكان عاملا على دكّالة[82]، وعرف ما عليه أبو العباس من المكانة العلمية وحسن الهدي وجمال الطريقة فرغّبه في الانقطاع إلى صحبته والخروج معه عامه ذاك و"يعطيه ألف دينار ذهبا مرابطية فامتنع من ذلك وقال: والله لو أعطيتني ملء الدنيا على أن أخرج عن طريقتي وأفارق ديدني من خدمة

---

(80) من حديث للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: سنن الترمذي (طبعة الشام، 7/ 325 (2683).

(81) انظر: فيما بعد.

(82) دكالة: اسم قبيلة وولاية في المغرب الأقصى تقع شمال مدينة مراكش (نفاضة الجراب، 160). ولمتونة: القبيلة التي منها المرابطون، وهي إحدى بطون صنهاجة كبرى القبائل البربرية (دول الطوائف، 299).

أهل العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلكهم ما رضيت؛ فعجب اللمتوني من علوّ همّته ورغب في صحبته على ما أراده "[83]. وتضاف هذه الحادثة إلى نظائرها[84] مؤكّدة البيان والتمثيل لمكانة أهل العلم واعتزازهم به وتقدير الحكام لهم بشكل ليس فيه تردّد، بل ثبات الوجهة القائمة على الوضوح لمقوّمات كوّنتها لديهم العقيدة وغرستها فيهم تعاليم الدين لا يغريهم سلطان أو يرغّبهم مال طالما كانا قوّة تفشل في صدّهما غير قوّة العقيدة الإسلامية التي تملك النفس وتصيغها في سلوك متين يحتفظ بالجمال الأصيل والأناقة الفاضلة والإنسانية الكريمة. وهم يعلمون أنّ الأجر يتناسب مع حجم خدماتهم العلمية والاجتماعية بكلّ أشكالها وأساليبها كافّة، ملزمون بأداء أمانتهم" نضّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه "[85].

وكما حرص هؤلاء العلماء على بثّ العلم وإيصاله إلى الناس بالتدريس والإقراء في حياتهم حرصوا مثل ذلك وأشد على توريث هذا العلم، بتدوينه والتأليف فيه فانتفع به معاصروه في حياتهم ومن جاء بعدهم من قادم الأجيال.

كانت للكلمة عندهم حرمة وحقّ ومكانة وهدف

فلا تلقى جزافا بل هي وليدة يقين وتقوى،

ولا تباع بعرض بل تقال شعورا بوجوبها وصدقا بواقعيتها وإيمانا بها،

---

(83) الذيل والتكملة، 1 / 277. كذلك: الديباج المذهب، 49.

(84) انظر: فيما بعد.

(85) سنن الترمذي، 7/ 307 (2660) .

وليست للتظاهر بل بجدية والتزام،

ولا لملء أشداق وليّ أعناق بل للتوجيه والاهتداء.

وتلك هي الكلمة المعدومة التجويف الباقية القوية المليئة بالحياة ما دامت الحياة لأنها تستمد بناءها وبهاءها من خالق الحياة جل علاه.

كلّ هذه العوامل وغيرها تفاعلت فجعلت للعلم قيمة ولأهله اعتبارا وللأخذ به مكانة مرموقة(86).

فهذا" السلوك العلمي" في الحرص والالتزام وفي الأخذ والعطاء، قاد إلى بذل الجهد للدرس والإنتاج في كلّ الأحوال، دونما توقّف أو تخلّف، منذ الصغر وحتى نهاية العمر، من غير أن يعتري أحدهم الملل. وتلك طاقة فذّة لا تقوم بها غير عقيدة الالتزام التي تلد المعجزات.

ومن تفاعل هذه العوامل داخل هذا الجوّ وفي رحاب هذه الظلال، كانت مؤلفات المسلمين في الأندلس، كثرة ضخمة ووفرة عجيبة، لا نستطيع لها تفسيرا موفقا إلاّ من خلال هذه الظروف التي تحرّكها هذه الدوافع وتقودها تلك الأهداف، وهي تسير بخطى ثابتة في هدي الله.

ولسعة علمهم وورع نفوسهم كان السؤال يأتي من أحد - أيّ أحد - إلى عالم منهم يرجوه جوابا، فيكون كتابا(87). وفي هذا معنيان:

*الغزارة في العلم والثراء في المعرفة والإلمام الواسع بالموضوع مع الإحاطة الشاملة بجوانبه ثمّ الإصغاء لمطالب الناس دون معرفة أو صلة، وليس لهذا علاقة.

---

(86) أعلاه. كذلك مقدّمة كتاب الصلة (س)

(87) لدينا في ذلك عدّة أمثلة، منها الكتاب الحاشية التالية.

*ثمّ الاستجابة للسائلين على أحسن صورة وأكمل رعاية. مع الحرص على الوفاء والاستيفاء، والشعور بالتبعة في الإجابة كتابة، وافتراص المناسبة لإرضاء نزعة العطاء المتحركة باتجاه الآخرة طالبة رضا الله، واستقصاء جواب السؤال بكلّ آفاقه في نظر المؤلّف وعمقه، لا في نظر السائل. وهذا يجري باهتمام يفوق اهتمامه وفرح بأداء الأمانة يزيد فرح التلقّي ويتجاوز شغف المعرفة عنده.

وكلّ هذا ضمن الدوافع التي وضحت فيما سبق" رجاء عظيم الثواب، وطمعا في الزلفى يوم المآب "[88].

فهذا وغيره أنتج لنا المؤلفات الكثيرة لكثرة من العلماء. فيروى ـ لموكب طويل ـ ثبت عال من الكتب، أصيب الكثير منها بالعطب.

إنّ المستوى الرفيع والغزارة العلمية الفياضة التي تمتّع بها أولئك العلماء لا يستغرب معها وصول إنتاج كلّ منهم إلى عشرات المؤلفات. فازدهرت بمؤلفاتهم خزائن الكتب الأندلسية الخاصة والعامة تعدّ بمئات الآلاف، إن لم يكن بالملايين. ورثنا بعضها وما ذهب منها أكثر من الكثير.

إنّ ظاهرة الغزارة التي أنتجت هذه الكثرة في التأليف رسمت لنا صورة أخرى مدهشة تدلّ عليها. ذلك أنّ بعض العلماء كان لديهم وراقون يملون عليهم ما يؤلفون[89]. إنّها حقّا ظاهرة تثير التعجيب.

---

(88) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ابن عبد البر، 1/3. وهذا الكتاب من جزئين كان جوابا عن سؤال سائل.

(89) انظر أعلاه، 47 وبعدها.

ومن ناحية أخرى فإنّ ظاهرة الكثرة في التأليف تشير كذلك إلى غزارة العلم عند أهله، والكثرة في المؤلفين تدلّ على فيض هذا العلم في المجتمع وسعته وعمقه وأصالته.

ونظرة في مؤلّف أو أكثر، مما وصلنا، لعديد من هؤلاء العلماء تدلّنا على العمق والشمول وتشير إلى المتانة في التأليف ومقدرة على الإنتاج الغنيّ الواسع الذي ينسجم أن يكون له.

واعتبارنا للصفات العالية العلمية والنفسية والخلقية السلوكية التي تمتّع بها علماؤنا في الأندلس، وتعرّفنا على قدراتهم العقلية في الفهم والاستظهار وطاقاتهم الإيمانية وقابلياتهم في الاستيعاب والإتقان - وهو ما عرض بصبغته هنا وعرض - يقودنا إلى تقدير هذه الكثرة وفهمنا طبيعتها.

ولم يكن الرقم العالي في المؤلفات لشخص واحد محصورا في الأندلس، فهو متوافر في البلدان الإسلامية على مختلف العصور. وليست الكثرة في التأليف ظاهرة سهلة أو اعتيادية بل هي أيضا دليل صفات علمية عالية متعدّدة، صاغتها طبيعة هذا المجتمع ومكوّناته المتميّزة، من الطاقات الهائلة والمستوى الذكائي الرفيع وسعة الأفق العلمي وعلوّ الباع مع الصبر والروية والرغبة والجدية بهمّة نادرة متأنقة ونشاط دائم متحسس متحمس متحسن، وبصورة عزيزة المنال. وهي - في مثل هذا الجوّ - تنمو وتتسع لتؤكّد حقيقتها.

ومسألة أخرى مهمّة تدلّ على سعة الأفق العلمي وشموله لعموم المجتمع، لا سيما عند العلماء، تلك هي تعدّد الميادين بالنسبة إلى الفرد من هؤلاء العلماء الأعلام ولا يدفع من أهميتها التوهّم أو الإيهام بأنّ ميادين

العلم يومها كانت محدودة ضيّقة، والجمع بينها ميسورا لا يشكل ميزة، فتلك جهالة فاضحة وافتراء مكشوف. حقيقة أنّ بعض فروع المعرفة الإنسانية الحاضرة زادت اتساعا وعمقا عما كانت عليه في تلك الأيام، ولكنّه لا يصلح للمحاجة في هذا الاتجاه. فإنّ الميادين العلمية المتعدّدة آنئذ كانت متّسعة متعمّقة غنية بالمثابرة والسعي والإنتاج. كانت في أوّلها ـ يوم بدأ المسلمون حياتهم العلمية، بما وفره الإسلام ـ بسيطة أو أقام المسلمون بعضها ابتداء، فاستمرّت تنمو وتتطوّر وتتقدّم. وهذه الاستمرارية طبيعة وضرورة علمية لذلك الجوّ الرفيع، لولاها لأصيب بالجمود ولما كان هذا المستوى الفريد الذي نتحدّث عنه ونجلي منه جوانب ونجتلي حقائق.

واستمرّ النموّ في الميادين المختلفة وتداولتها الأيام بأحداثها والناس بأقداحها. وزاد بعضها زيادات ملحوظة وأكسبته أعماقا جديدة فصار التحوّل في هذا الخط المتّجه صوب الأهداف التي ارتسمتها عقيدة الإسلام. وهذا لا يلغي أو لا يقلّل حقيقة ما ذكرت.

فمن الضروري للعلم أن يكون في اتساع دائم وفتح جديد. وأيّة زيادة نحصل عليها اليوم في ميدان ما لا تشير إلى ضيق فيه قبل ذلك. بل كان واسعا لكنّه أضاف إلى اتساعه وسيضيف، ما دامت فيه حيوية.

إنّ كثرة المؤلفات المهمّة في هذه الميادين كافّة لدى علماء الأندلس ـ مع التفاوت ـ لتدلّ على ذلك بشموخ وحزم. فإلام تشير الكثرة من الكتب ـ لا سيما في الأندلس ـ التي ترجمت إلى الغرب، رغم تحديد مجالاتها ونوعياتها؟

كان هذا النقل أساسا للتقدّم العلمي الذي يعرفه عالمهم. فبم نفسّر اعتماد الجامعات الغربية في التدريس - في قرونها الوسطى وحتى قرون قريبة على ما ترجموه من الكتب الإسلامية، خاصة في الأندلس، لعدّة قرون، دون تغيير فيها؟[90]

فإنتاج علمائنا في الأندلس الغني الغزير في الميادين الكثيرة الواسعة يؤكّد ما سبق ويدلّ على روعة الدوافع وقوّتها وأصالة أعماقها وعلى الهمّة العالية الواعية في طلب المعرفة والصبر والجهد في تحصيلها والقوّة على تدوينها والانكباب على الإنتاج فيها وإيصالها إلى الناس، ليس فقط بطريق الكتاب ولكن كذلك - وبحرص - بطريق التدريس والإقراء.

فكانت تلك الاهتمامات أساسا للاضطلاع بهذه المهام من القيام بواجب التدريس يعمرون بها نهارهم ويحلّقون له مجالسهم ويضيئون ليلهم يدوّنون ويصنّفون.

كلّ ذلك لم يحجبهم عن الاهتمام بأمور المجتمع والإحساس العملي الداعي للمشاركة بقضايا المسلمين في البقاع الأخرى من دار الإسلام والوقوف في المقدّمة ساعة الأزمة وتولّي الوظائف العامّة غير التدريس، أو السعي في أداء مهمّة تقتضي السفر إلى خارج الأندلس.

فكان العلماء والفقهاء للأمّة حصنا ولحماها درعا. فهم الذين سعوا للمّ شعث الأندلس وجمع أياديه أيام الطوائف، فكانوا سفراء بلدهم إلى عدوة المغرب لدعوة المرابطين إلى معاونة إخوانهم الأندلسيين في جهادهم لدفع

---

(90) وقد شهد بذلك عدد من الكتاب الغربيين.

غائلة اعتداء إسبانيا النصرانية ومن آزرهم من أقوامها خلف جبال البرت[91].

فقاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد الجدّ (450ـ 520هـ = 1058ـ 1126)[92]، صاحب المؤلفات الكثيرة، هو الذي سفر إلى عدوة المغرب سنة 520هـ للقاء أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، ولإبداء الرأي في بعض الأمور المتعلّقة بالأندلس وشؤونه، فأخذ الأمير بنصيحته[93].

وإنّ القاضي الإشبيلي أبا بكر بن العربي (468ـ 543هـ = 1076ـ 1048) ذهب إلى الشرق الإسلامي مع والده سنة 485هـ وأقام في عدّة مناطق تلقّيا خلالها العلم والتقيا بالعديد من العلماء وفي أثناء إقامته في بغداد انتدب نفسه لمهمّة سياسية فكتب في سنة 490هـ(1097م) إلى الخليفة العباسي المستظهر يرجوه فيها تأييد المرابطين[94]، وحمل فتاوى فقهاء المشرق ومرسوم الخليفة في هذا الشأن إلى الأمير المرابطي[95]. وهو الذي ذهب إلى مراكش في عدوة المغرب على رأس وفد من إشبيلية لحمل بيعة أهلها إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي الكومي في أوائل سنة 542هـ[96]. وابن العربي هذا صاحب المؤلفات الكثيرة التي وصلت الأربعين كان بعضها

---

(91) انظر عن هذه الجبال: التاريخ الأندلسي ، 96 وبعدها.

(92) اعلاه،52 وبعدها.

(93) الإحاطة، 1/ 119 ـ 20. عصر المرابطين والموحّدين، 1/113، 132، 416.

(94) تاريخ الجغرافية والجغرافيين، مؤنس، 399 ـ 400.

(95) عصر المرابطين والموحدين، 1/ 44.

(96) المصدر نفسه، 1/267، 325.

صغيرا وعدّ بعضها الآخر أجزاء كثيرة[97].

وكم من هؤلاء العلماء من خاض ميادين الجهاد وهو في مقدّمتها فنال شرف الاستشهاد بفرح واستبشار، فكانوا العلماء المجاهدين، وبعد أن جاهدوا بعلمهم، والعمل عنوان العلم وهو ترجمانه. ومن هؤلاء:

الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي الذي استشهد في معركة الزلاّقة (SAGRAJAS) سنة 479هـ[98].

والقاضي أبو علي الصدفي العلاّمة المشهور الذي استشهد في معركة كتندة «قتندة» (CUTANDA) سنة 514هـ[99].

وأبو الربيع بن سالم الكلاعي الحافظ الذي بلغت مؤلفاته خمسة وعشرين، استشهد في معركة أنيشه قرب بلنسية مع سبعين من العلماء، وكان يحمل الراية ويحثّ الناس على الجهاد والاستشهاد، سنة 634هـ[100]. والأمثلة على ذلك كثيرة[101].

فهذه الصفات العلمية الفريدة لعلمائنا في الأندلس وسعيهم لطلب العلم ووعيهم له وحرصهم على أدائه للناس بأمانة وبذله لهم بصدق جعلهم نوعية متميّزة هي في العلم ذات موازين خلقية رفيعة. فكانت صيانة لمجتمعهم وصمام الأمان له، أمام الأخطار التي تتعاون فيها عوامل

---

(97) أعلاه، حيث نجد هذه المعاني وأمثالها كثيرة مبثوثة.

(98) الصلة، 68 (144). البيان المغرب، 4/136، 140.

(99) الصلة، 146 (330). نفح الطيب، 2/92، 4/ 461؛ المعجم؛

(100) نفح الطيب، 4/473.

(101) الصلة، 572.

الشرّ وتتّحد لها قوى البغي. فكانوا للحقّ دعاة وللخير بناة وللأمّة رعاة. نضرت بذلك وجوههم ونفوسهم واخضرّت حياة مجتمعهم بما أتى غرسهم من ثمار هنيئة استمتعوا بها، وما زال أكلها دائما. نفعهم الله، لما أرادوه به، رضا ومثوبة يوم يقوم الأشهاد، وأدخلهم ـ بفضله ـ جنّة عرضها السموات والأرض.

مما سبق وما يقدّمه هذا البحث من صورة لطبيعة الجوّ العلمي الأصيل في الأندلس وما يرسمه من ملامحه الواضحة وسماته القوية الناصعة يتّضح لنا الكثير عن حقيقة المستوى العلمي والغزارة في الإنتاج والكثرة في التأليف.

ثالثا: كثرة أجزاء الكتاب

تواترت الأخبار عن مؤلفات المؤلفين، وهي في مجموعها كثيرة، وكذلك بالنسبة إلى إنتاج كلّ مؤلّف. كما تواترت عن ارتفاع عدد أجزاء الكتاب الواحد لعديد من الكتب والمؤلفين. وهي ظاهرة تحتاج إلى إلقاء بعض الضوء عليها. وكم يمكن الأخذ بها واعتمادها؟

الحديث الآنف عن الجوّ العلمي ومستوى العلماء وكثرتهم وغزارة المعرفة عندهم وقدرتهم العالية على الإنتاج يعين على سهولة تصوّر هذا الأمر وإمكان الأخذ بواقعيته بعد تحديده. فلو حدث أن وقع الخطأ في ذكر عدد أجزاء كتاب ما أو توهّما في قراءة رقمه المكتوب ـ وليس ضروريا ـ فلا يقاس على هذا النادر بحال.

ولا يمكن نسبة هذه الظاهرة إلى المغالاة أو المبالغة، لأنّ هذه الأنباء كثيرة

لدى عديد من العلماء والكتب في عصور طويلة. ورواتها كثيرون من أهل الفقه والصدق والصيانة والتقوى عرفوا بها في حياتهم العلمية ومسلكهم العام. كما لا يمكن أن يجتمع على المغالاة كلّ مؤلّفي المصادر والتراجم التي احتوت هذه الأخبار.

إنّ هؤلاء الثقات أصحاب التراجم والأمهات كانوا أمناء وكانت مصادرهم موثوقة ورواياتهم عن ثقات مثلهم. ومعتمداتهم وثائقية وكثير منها شهود أو مشاهد عيان[102]، ولمناقشة هذا موضوع آخر خارج هذا البحث لكن ذلك يتضح من قراءة في كتبهم. وهذه الطريقة التي اتبعوها وتوفّرت لديهم، أوثق من مجرّد الإشارة إلى المصدر أو المرجع وتعيين موضع الخبر. لأنّ مجرّد الإشارة ليست هي بذاتها موضع الثقة، بل الثقة بنوع المصدر وقيمته العلمية وطريقة تلقّيه ومقدار الثقة بالناقل وأمانته ومصادره هو. بل إنّ كثيرا من هؤلاء الكتّاب كانوا من هذه النوعيات التي ملكت تلك الميزات وعانت الإنتاج وأكثرت منه. فهم لم يشيروا شكا حول هذه الأخبار التي ألفوها واقعا وعاشوها حقيقة ورأوها عيانا[103]. ومارسوها إنتاجا ونقلوها أمانة.

وإنّ هذا الإنتاج صادف من الاعتداء ونكب بأحداث ذهبت بالكثير منه وأنهت وجود كثير من تلك المؤلفات الطوال التي كان بقاؤها يغني عن كثير من هذه المناقشة. إنّ حملات الإعدام التي وجّهت لهذا الإنتاج وأغارت على المكتبة الإسلامية لم يبق لنا منه إلاّ القليل، عرّفنا بأسمائها وأخبارها ـ

(102) وهو ما نقل من مصادر عدة في أكثر من مكان.

(103) نقلت عدة نصوص في ذلك خلال هذا البحث.

دون ذواتها ـ البقية التي سلمت لنا.

لقد حمل هذا الإنتاج وضمّت تلك المكتبة العقيدة الإسلامية وشريعتها وبيان العلماء المسلمين وفكرهم النابع منها. فاستهدفت حملات الظلم الحالكة والجهالة الحمقاء القضاء عليه أسيرة الجهل، عداء له وخوفا من سريانه[104]. استهدفت القضاء عليه بحرقه وإتلافه، دونما سجنه أو إغلاقه. وكان هذا في الشرق الإسلامي كما في غربه[105]. فأين ذهبت مثلا مكتبة بني عمار في طرابلس الشام عاصمة ملكه وواسطة حكمه؟ لمّا احتلّ الصليبيون طرابلس سنة 503هـ(1110م) بعد حصار سبع سنوات[106] وارتكبوا النهب والسلب [107] وبالحقد الدفين. فدخل أحد القسس هذه المكتبة التي قدّرت كتبها بالملايين قلت أو كثرت ودخل قاعة القرآن الكريم فكلما التقط كتابا وجده القرآن الكريم فثار غاضبا وأمر بإحراق المكتبة التي أتت عليها النيران[108]. وإلى هذه الحادثة يشير بإجمال ابن الأثير[109].

إنّ الكتب ذوات الأجزاء الكثيرة، والروايات عنها متواترة، ليست محدودة بل متوافرة، مما يؤكّد حقيقتها. ويبدو أنّه فقدت جمهرة كبيرة من هذه المؤلفات وذهب العديد من أجزائها. وإنّ الكتب التي وصلتنا، كاملة

---

(104) انظر: الآثار الأندلسية الباقية، 433-435.

(105) أدناه ، حيث يأتي الحديث عن هذا الموضوع.

(106) العبر، الذهبي، 4/6

(107) الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، 1/372 .

(108) المكتبات في الإسلام، ماهر حمادة، 134.

(109) نفسه.

الأجزاء أو ناقصتها، فعدد أجزائها كما ذكر المؤلفون الثقات، والأمثلة فيه كثيرة[110]. وكلّ ذلك يفهم في الإطار الذي ترسمه طبيعة المجتمع وتكوينه العلمي ونظرته إليه وتعلّقه به وشدّة الاهتمام والسعي له.

غزارة الإنتاج في الحضارة الإسلامية

ثراء المكتبة الإسلامية

يتناول هذا البحث بشكل عام الحديث عن الكتب في الأندلس كأداة مهمّة لتداول العلم وحفظه. فيتناول اهتمام المسلمين بهذه الحصيلة ومكانتها، حتى غدت هواية عامّة بين أفراد المجتمع رجالا ونساء على اختلاف مستوياتهم الثقافية فكان ذلك بعض ثمار البناء الإسلامي. ولقد تأثّر بذلك غير المسلمين في المجتمع الأندلسي المسلم فجنوا بعض هذه الثمار وأنعشوا بها دراساتهم الخاصة كذلك.

ويتناول كذلك - بلمحات - المؤلفات وأنواعها وموضوعاتها وقيمتها العلمية وكثرتها والمؤلفين ومكانتهم ومقدار إنتاجهم، شرحا وتعليلا، إذ لدينا في هذا الميدان ما يبهر العقول، وليس هنا موضع تفصيل.

ويحفّ بذلك بيان للقواعد والمثل العلمية والدوافع التي أقيمت عليه الظاهرات المختلفة في هذا الميدان كما تنتشر بين تضاعيفه تعليلات للأمور المختلفة وإشارات إلى قضايا متعددة تلقي الضوء على طبيعة هذا المجتمع

(110) وردت وترد أمثلة عديدة خلال هذا البحث.

متلمّسة أسباب تفرّده وعلوّ درجته وفضيلة امتيازه مضيئة جوانب هذا الموضوع متحققة من دراسته على أسس واقعية واستقراء سليم للحقائق في ضوء طبيعتها وموازينها التي جرت في تيارها.

ضخامة التأليف

امتازت الحضارة الإسلامية بكثرة الإنتاج في كلّ أقطارها وعصورها مع تفاوت، وكانت الأندلس زهرة لامعة ودرة ساطعة في هذا الميدان وغيره. فالمكتبة الإسلامية والأندلسية منها ذات غنى فريد في عالم الفكر والإنتاج لا تدانيها أمّة من أمم الأرض خلال عمرها الطويل وتقلبها في حضارات متعدّدة الأشكال، والأمم والشعوب التي اعتنقت الإسلام واستظلت بظله واستنارت بنوره يجري عليها هذا الحكم قبل الإسلام لكنها بالإسلام تغير حالها واستقام أمرها وكثر إنتاجها وازدهرت علومها وبشكل خير وفاضل ونافع ووفير ومرتبط بأسس ومقومات المجتمع المسلم، إنه الإسلام الذي صاغ الحياة تلك الصياغة الفريدة وحرك المؤمنين حركة جديدة متجددة واعية مضيئة تعرف ربها وتسلك درب شريعته وتتجه صوب قبلته مترسمة سنة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بمنهجه الرباني لا ترتضي به بديلا.

فلا تملك أمّة من الأمم ما ملكته الأمة الإسلامية من عمق وشمول ولا كانت لمكتبة منها ما احتوته المكتبة الإسلامية من كثرة وغزارة بعيدا عن كثرة الاتباع وليس هو موضوع مقارنة، فكم من أمة فاقتها في العدد.

وكما كانت هذه الكثرة عامة لكثرة عدد المؤلفين والأعلام فهي أيضا كثرة في الإنتاج لعديد من هؤلاء المؤلفين كثرة مذهلة، وبعضهم شمل إنتاجه العديد من الميادين على صفة الموسوعية.

فهذا الحافظ أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي (201ـ 276هـ = 817 ـ 889م)[111]، كان أحد الأعلام الموسوعيين، وهو صاحب التآليف الحسان [112] الكثيرة التي " تدلّ على احتفاله واستكثاره "[113]. وقد "صارت قواعد للإسلام، لا نظير لها، وكان متخيّرا لا يقلّد أحدا، وكان جاريا في مضمار البخاري ومسلم والنّسائي "[114].

ومن مؤلفاته كتابه في " تفسير القرآن" الكريم، الذي يقطع ابن حزم دون استثناء " أنّه لم يؤلّف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطّبري ولا غيره " [115] ولقد بلغ هذا التفسير عشرات المجلدات، ولا أعرف لجزء منه مكانا.

ولابن مخلد مكانة رفيعة وسمعة علمية عالية ملأ بها الأندلس في وقته وخلّف لها كثيرا من علمه. ولقد أشاد ابن حزم القرطبي بمكانته فقال: "مسند بقيّ روى فيه عن ألف وثلاث مئة صاحب ونيّف، ورتّب حديث كلّ صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنّف، وما أعلم هذه المرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث"[116].

---

(111) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/ 93 (رقم: 283). نفح الطيب، 518/2.

(112) جذوة المقتبس، الحميدي، 167(رقم: 331). نفح الطيب، 2/ 47.

(113) بغية الملتمس، 245.

(114) نفح الطيب، 519/2، 3/ 169(من رسالة ابن حزم في فضل الأندلس).

(115) نفح الطيب، 3/ 168.

(116) نفح الطيب، 519/2

ومن جميل تقدير العلم واحترام أهله ولطيف الاعتراف بخدماتهما أن يؤلّف في فضائل بقي بن مخلد كتاب" المسكتة " في ستة أجزاء. ومؤلف هذا الكتاب هو عبد الله بن الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)[117]. وفي هذا معنى جليل في تقدير العلماء إلى درجة أن يكتب عن فضلهم أولاد الخلفاء. كذلك جمع عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد (366هـ) [118]كتابا في " فضائل بقي بن مخلد"[119]. ولم ينفرد بقي بهذا التقدير بل كان هذا شائعا ومعروفا إذ في فضائل العلماء والأساتذة والاحتفاء بهم لدينا مؤلفات كثيرة، سواء كان التأليف لشيوخ من درسوهم أو لعلماء يعرفونهم أو سبقوهم اعترافا بالفضل وأمانة في العلم واستحقاقا لأهله ويمكن أيضا أن يكون للحث على العلم.

وهذه الطريقة في بيان فضائل أهل العلم والفقه والصلاح مألوفة، إقرارا بفضلهم واعتبارا بمنهجهم وتنويها بمسلكهم وتكريما لعلمهم وتوجيها لغيرهم. وهي ليست تاريخا عن حياته، بل تسجيلا لآثاره وفضائله رفعت قدره وأعلت منزلته وعطّرت ذكره، وهو نهج مألوف.

لقد جمع محمد بن موسى بن علون بن زياد الجذامي كتابا في فضائل شيخه أبي بكر بن مجاهد الإلبيري[120]. كذلك فعل الرعيني الإشبيلي في كتابه برنامج شيوخ الرعيني الذي عدد فيه شيوخه وتحدث عنهم وذكر

(117) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، 2/780.

(118) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 264 (رقم: 798).

(119) فهرسة ابن خير الإشبيلي، ص 290.

(120) التكملة، 1/371.

فضلهم واعتزازه بهم ونوّه بمكانتهم. وكذا فعل آخرون. وابن حزم بدوره بلغت مؤلفاته - التي ضاع أكثرها - أربع مئة مجلد في ثمانين ألف ورقة[121]، صنفها في العديد من الميادين[122]، فهو من الموسوعيين. منها كتاب " الفصل في الملل والأهواء والنحل " ، وهو تاريخ للعقائد ودراسة مقارنة " وهو علم لم تعرفه أوربا إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي "[123].

كما نلحظ كثرة الأعلام في كلّ ميدان وثراء الإنتاج في العلوم المختلفة، وطبعا في العلوم البحتة. ففي الطب لدينا قائمة طويلة من الأطباء وكذلك الكيمياويين وأهل العقاقير (الصيادلة). ولكثير منهم أو لكلّهم عدّة مؤلفات بلغت الغاية في قيمتها العلمية، تحدّث عن بعضهم ابن أبي أصيبعة في كتابه " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " ، وابن جلجل في كتابه "طبقات الحكماء والأطباء " . وقل مثل ذلك في الرياضيات والهندسة والفلك وغيرها[124]. ومن الملاحظ أنّ عديدا من العلماء الذين اشتهروا في علوم الشريعة واللغة والآداب وغيرها هم أنفسهم كانوا مشهورين في العلوم البحتة كابن رشد الحفيد وأبي عبيد البكري وابن الرومية وأبي بكر بن زهر وأمية بن الصلت وأبو جعفر أحمد بن مضاء اللّخمي (513ـ 594)[125]، الذين يرد ذكرهم في تضاعيف هذا المقال. ولكن المؤلفات الطوال تتوفّر في

(121) راجع: أندلسيات، 1/ 122.

(122) تاريخ الحكماء، القفطي، ص 223. الصلة، ص 416.

(123) الإسلام في إسبانيا، لطفي عبد البديع، 42.

(124) راجع مثلا: نفح الطيب، 3/ 160 ـ 186، 374 ـ 7.

(125) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي، 1/ 217.

العلوم النظرية لطبيعتها وعموم الحاجة إليها، وإن كنا لا نعدم وجود المطولات في العلوم البحتة كالطب مثل كتاب أبي القاسم الزهراوي "التصريف لمن عجز عن التأليف".

وتوفّر مؤلفات خاصة عن أهل كلّ علم وميدان ظاهرة مألوفة في الإنتاج الإسلامي والأندلسي منه. فلدينا مؤلفات عن الفقهاء والقضاة والنحويين والكتّاب والشعراء والحكام وغيرهم من أهل كلّ فنّ في عامّة الأندلس أو في مدينة من مدنه، وهو ما يعرف بكتب الطبقات.

كما اختصّت كتب لواحد من الأعلام وأحيانا في أحد جوانبه ككتاب "المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصّدفي" ألّفه ابن الأبار في تلاميذ الصدفي ومعاصريه. بل إنّ القاضي عياض ألّف كتابا عن شيوخ أستاذه أبي عليّ الصدفي هذا[126]. وإفراد الكتب عن الشيوخ مألوف؛ فكم من العلماء من أفرد كتابا للحديث عن شيوخه الذين تلقّى عنهم[127] وهو ما قد يعرف أحيانا بكتب البرامج ككتاب برنامج شيوخ الرعيني الأندلسي المار الذكر.

وهؤلاء العلماء المكثرون في التأليف كثيرون جدا وكانت مؤلفات كلّ منهم كثيرة أيضا. فقد وصلت مؤلفاتهم العشرات أو المئات بلغ بعضها عشرات الأجزاء أو مئاتها[128] على تفاوت في الأحجام وبلغ مجموعها

---

(126) مقدمة: المعجم (ل).

(127) ما ذكر هنا عن الموضوع هو مجرد نماذج محدودة.

(128) راجع مثلا: نفح الطيب، 2/563، 491-4.

لأحدهم مئات المجلدات. يضاف إلى ما ذكر أمثلة أخرى. فالقاضي الإشبيلي أبو بكر ابن العربي(468ـ543هـ = 1077ـ1148م) [129] تعدّ مؤلفاته زهاء الأربعين [130] منها" أنوار الفجر في تفسير القرآن" في ثمانين مجلدا [131] في كذا ألف ورقة أنفق في تأليفه عشرين سنة، كما نقله ابن فرحون في الديباج المذهب [132]عن مؤلّف آخر لابن العربي" القبس على موطّأ مالك بن أنس" الذي يبدو أنّه وصلنا ولعلّه يقدّم إلى عالم الطباعة. كما نقل ابن فرحون خبرا آخر مهمّ في هذا الشأن فيقول: " وأخبرني الشيخ الصالح أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن البورغواطي في سنة إحدى وستين وسبعمئة بالمدينة المنورة قال أخبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالإسكندرية في سنة ستين وسبعمئة قال رأيت تأليف القاضي أبو بكر ابن العربي في تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملا في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان فارس بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي بن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الحق وكان السلطان أبو عنان إذاك بمدينة مراكش وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فعددت أسفار هذا الكتاب فبلغت عدّتها ثمانين مجلدا ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء. قال أبو الربيع وهذا المخبر - يعني يوسف -

---

(129) الصلة، ابن بشكوال، ص 591 (رقم: 1297). نفح الطيب، 2/ 28ـ29.

(130) بغية الملتمس، ص 93(رقم: 179). نفح الطيب، 2/ 35 ـ 36.

(131) نفح الطيب، 2/35.

(132) الديباج المذهب، ابن فرحون، 282.

ثقة صدوق رجل صالح كان يأكل من كدّه"(133). وابن حيّان القرطبي (377ـ 469هـ/ 987ـ 1076م) كان" قوي المعرفة مستبحرا في الآداب بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له " (134) ألّف عدّة كتب، منها كتاب" المتين" في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلدا(135). وله كتاب" المقتبس في تاريخ أهل الأندلس" في عشر مجلدات(136). ولأحمد بن أبان بن سيد، صاحب شرطة قرطبة(382هـ/ 992م)، كتاب" السماء والعالم" في مئة مجلد رتبه" على الأجناس في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة"(137). وأنّ أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي (324ـ 401هـ/ 936ـ 1010م)، قد" جمع للحكم أمير المؤمنين كتابا حفيلا في رأي مالك: (الاستيعاب) من مئة جزء"(138)، جمعه له مع مؤلف آخر. وقاضي الجماعة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الأكبر) الفقيه(139)، وهو ابن رشد الجد (450ـ520هـ/ 1058ـ 1126م) صاحب التواليف العديدة التي منها كتاب" شرح المستخرجة "

---

(133) الديباج المذهب، 283.

(134) الصلة، 153(رقم: (345).

(135) نفح الطيب، 3/ 181، 193. وفيات الأأعيان، 2/ 218.

(136) نفح الطيب، 3/ 181. وفيات الأعيان، 2/ 218.

(137) جذوة المقتبس، ص 381(رقم: 964). نفح الطيب، 3/172، 381. قارن، إنباه الرواة، 1/ 31، 2/334. راجع: تاريخ علماء الأندلس، 2/ 67.

(138) الصلة، 23 (رقم: 38).

(139) تمييزا له من حفيده (كنيّه وسميّه) ابن رشد (الأصغر) الفيلسوف (520ـ 595هـ).

المسمّى " البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل "[140]. ويورد ابن عذاري وصفا لهذا المؤلّف في " البيان المغرب" بأنّه " تأليف لم يسبق أحد من العلماء إلى مثله ينيف على المئة جزء"[141]، وقد " نيف على العشرين مجلدا "[142]. ويعرف كتاب "المستخرجة " بـ" العتبيّة " ، نسبة إلى مؤلّفه الفقيه الأندلسي محمد بن أحمد بن عتبة المعروف بالعتبي(255هـ / 868م)[143]. وكتاب "المستخرجة " استخرجه العتبي من كتاب" الواضحة " في أصول فقه مذهب الإمام مالك تأليف عبد الملك بن حبيب المتوفى(238هـ/ 853م) [144] فصار معتمد" أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها"[145]. ويذكر بهذه المناسبة ما يورده المقّري في نفحه من أنّ عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألّف كتابا في مئة جزء وسماه" النصرة لمذهب إمام دار الهجرة "[146].

وكذلك أبو الوليد محمد بن رشد الحفيد (الأصغر) الفيلسوف (520 ـ 595) الذي "كان يفزع إلى فتواه في الطبّ" على حدّ تعبير ابن الأبار[147].

---

(140) أزهار الرياض في أخبار عياض، المقري، 3/ 60.

(141) البيان المغرب، 4/ 74.

(142) الديباج المذهب، 279.

(143) نفح الطيب، 2/ 215ـ216.

(144) نفح الطيب، 2/ 6.

(145) مقدمة ابن خلدون، 3/ 1158.

(146) نفح الطيب، 2/ 521.

(147) التكملة، 2/ 554(رقم: (1497).

فقد ذكر أنّ مؤلفاته تزيد على الستين "[148] وأنّه سوّد فيما صنف، وقيّد وألّف، وهذّب واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة " [149].

ويذكر لنا ابن بشكوال في صلته خبرا قيما له دلالته الكبيرة وفيه التأثير الواضح لهذه الظاهرة لدى علمائنا، ظاهرة الكثرة في التأليف، مع الاحتفاظ بالمستوى العلمي الرفيع وأصالته، ومهما قيل في التأويل.

فيحدثنا عن قاضي الجماعة بقرطبة أبي المطرّف عبد الرحمن بن محمد ابن عيسى بن فطين بن أصبغ بن فطيس (348ـ 402هـ) فيذكر لنا مؤلفاته، قائلا بأنّه" جمع كتبا حسانا منها:

كتاب" القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن " في نحو مئة جزء ونيف[150].

وكتاب (المصابيح في فضائل الصحابة) مئة جزء.

و(فضائل التابعين لهم بإحسان) مئة وخمسون جزءاً[151].

و (الناسخ والمنسوخ) ثلاثون جزءاً،

و (الإخوة من المحدثين والتابعين ومن بعدهم من الخالفين) أربعون جزءاً،

و (أعلام النبوة ودلالات الرسالة) [152]عشرة أسفار،

---

(148) الديباج المذهب، 285.

(149) التكملة، 2/554.

(150) انظر ايضا: شذرات الذهب، 3/163 . العبر في خبر من غبر، الذهبي، 3/79.

(151) انظر: شذرات الذهب، 3/163.

(152) ألّف عدد من علماء الأندلس في هذا الموضوع.

و (كرامات الصالحين ومعجزاتهم) ثلاثون جزءاً،

و (مسند حديث محمد بن فطيس) خمسون جزءاً،

و (مسند قاسم بن أصبغ العوالي) ستون جزءاً،

و (الكلام على الإجازة والمناولة) عدّة أجزاء،

وغير ذلك من تواليفه. نقلت تسميتها من خطّ يده "[153]. وللأسف فلا يبدو الآن وجود بهذا الثبت من كتب قاضي الجماعة أبي المطرّف بن فطيس التي قاربت مجموع أجزائها الستّ مئة. ومهما نتأوّل لتفسير هذه الكثرة وكيفما تكون نظرتنا لها: بصغر حجم الجزء[154] أو أنّها كانت مما أملاه أو درّسه - أو هي مبالغة، وليس بالضروري - فهي تدلّ على الكثرة[155]. ولا يبدو أنّ هناك ضرورة قصوى تقود إلى استبعاد مثل هذا الأمر الذي نجده لدى عدد من علمائنا الأندلسيين الذين عرفوا بكثرة مؤلفاتهم[156]، مثل إخوانهم في بقية العالم الإسلامي المترامي. فإنّ ابن فطيس [157]كرّس حياته للعلم مع حرص وإتقان يقوم على الإيمان المفتّق للطاقات المنمّي لها مع ذكاء وفرت الانتفاع به الأسباب الأخرى - المادية وغيرها - في مجتمع كلّ ما فيه يشجّع على العلم ويوفّر جوّا علميا عالي المستوى وهو أهم من كل الأسباب الأخرى بل هي توفرها وتعوض عنها ولا

---

(153) الصلة، 311- 312(رقم: (682).

(154) راجع أدناه،

(155) انظر: الصلة، 406.

(156) انظر عن مناقشة هذا الأمر ومصطلحاته: أدناه،

(157) سيرد ذكره لأحد أصحاب المكتبات الخاصة الشهيرة.

تشكل غيرها معوقا.

وعن ابن فطيس يذكر ابن بشكوال [158] كذلك بأنّه" كان عالما بالحديث والتقييد له، واسع الرواية. كتب الحديث عمره كلّه " بالإضافة " إلى سعة الرواية والحفظ والدراية. وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده، ومستمل بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه "[159]. كما" كان من جهابذة المحدّثين وكبار العلماء المسندين، حافظا للحديث وعلله، منسوبا إلى فهمه وإتقانه، عارفا بأسماء رجاله ونقلته يبصر المعدّلين منهم والمجرّحين، وله مشاركة في سائر العلوم وتقدّم في معرفة الآثار والسير والأخبار وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة والحكايات المسندة، جامعا لها، مجتهدا في سماعها وروايتها "[160]. ومثل هذا يقال في حقّ العديد من مؤلفينا من حيث غزارة علمهم وتمكّنهم وطول تحصيلهم، وكلّها تنتج كثرة في التأليف وضبطا للإنتاج. فيذكر مثلا الحافظ أبو عمر الداني الذي سبقت الإشارة إليه[161]، والذي كان على معرفة بعلوم الحديث وجمع في علوم القرآن" تواليف حسانا مفيدة يكثر تعدادها ويطول إيرادها "[162]. فذكر المقّري في نفح الطيب بأنّ تآليفه بلغت مئة وعشرين مصنّفا[163]. كما وصف بكونه" حسن الخطّ جيد

(158) الصلة، 312.

(159) الصلة، 310.

(160) الصلة، 310.

(161) اعلاه، تكرر ذكره مرات عديدة خلال هذا البحث.

(162) الصلة، ص406.

(163) نفح الطيب، 2/136.

الضبط من أهل الحفظ والعلم والذكاء والفهم، متفننا بالعلوم جامعا لها معتنيا بها. وكان ديّنا فاضلا ورعا سنيّا "[164]. واتّصف الداني بصفات علمية من الإتقان وسعة العلم جعلته ثقة يخضع أهل العلم لتصانيفه، وبلغ في عصره مستوى عسير المضاهاة في حفظه وتحقيقه.

ومن النافع في هذا الشأن الانتفاع بما حفظته لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة والعامة من ثروة غزيرة ومعلومات مهمة. ويحلو هنا الحديث عن نموذج من هذه الكتب. لدينا كتب عديدة في تراجم الأعلام الأندلسية. فالخاصة ما دارت حول طبقة أو أهل فنّ ما أو روّاد ميدان من الميادين، كالقضاة والمفسرين والفقهاء والأدباء والأطباء والحكماء والقادة والحكام. ويمثّلها نوع وقسم من" كتب الطبقات" التي تكرّس لهذا النوع وتقوم على هذا الأساس من التصنيف العلمي قد يختصّ بمدينة واحدة أو بلد الأندلس كافّة. ولدينا منها الكثير بعضها موجود وكثير غيرها مفقود، ولعلّه يمكن اعتبار الكتب التي تختصّ مدينة واحدة تتحدّث عنها متناولة كلّ ما يتعلّق بها من أمثال" الإحاطة في أخبار غرناطة " لابن الخطيب و"مزية المريّة على غيرها من البلاد الأندلسية " لابن خاتمة. والعامّة ما تدور حول النابهين والبارزين من كلّ ميدان من أهل الأندلس مثل كتاب"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " لابن بسّام. وكتب التراجم الأندلسية العامة كثيرة من بينها سلسلة جاءت متتابعة، يتمّ بعضها بعضا في هذا الأسلوب: وضع ابن الفرضي(351ـ403هـ/ 962ـ 1013م)كتابه"تاريخ علماء الأندلس"[165].

(164) الصلة، 406. نفح الطيب، 2/ 136.

(165) الصلة، ص 251 (رقم: 573) . نفح الطيب، 2/ 129 ـ 131.

ثمّ وصل ابن بشكوال (494ـ 578هـ/ 1101ـ 1182م) كتاب ابن الفرضي ذاك بكتابه" الصلة "، الذي فرغ من تأليفه في جمادى الأولى سنة 534هـ[166]. ثمّ أكمل ابن الأبار (595ـ 658هـ/ 1198 ـ 1260م) كتاب "الصلة " هذا بكتابه" التكملة لكتاب الصلة "[167]. ثمّ وضع أبو عبد الله ابن عبد الملك المراكشي (634ـ 703هـ) معجمه" الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" في تسعة أجزاء تذييلا على صلة ابن بشكوال وتكميلا لتاريخ ابن الفرضي أصل ابن بشكوال. تلاهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (627ـ 708هـ) فألّف كتابه" صلة الصلة" ذيلا لصلة ابن بشكوال [168]. والكتب السابقة مطبوعة، بأجزائها جميعاً أو بعضها. أما ابن الخطيب (713ـ 776هـ/ 1313ـ 1374م) فقد وضع كتابه" عائد الصلة"، ولعلّه لم يعثر عليه. وقد وصل به كتاب ابن الزبير. وقد أجرى ابن الخطيب ذكر كتابه في ترجمته لنفسه في "الإحاطة" [169]فيقول:" وعائد الصلة في سفرين، وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير"[170].

وباستعراضنا لكتب التراجم الأندلسية الخاصة والعامة وغيرها نجد أنّ

---

(166) التكملة، 1/ 304 ـ 307 (رقم: 831). وفيات الأعيان، 2/ 240. الديباج المذهب، 114.

(167) نفح الطيب، 2/592، 3/181 .

(168) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، 1/197 .

(169) خطية الأسكوريال، رقم: 1673(الغزيري) .

(170) لسان الدين ابن الخطيب، عنان، 302 .

ظاهرة الكثرة في التأليف معتادة. كالقاضي أبي الوليد الباجي (403-474هـ)[171]، والعلامة الثّبت ابن حزم القرطبي (456هـ) "صاحب المصنفات " الذي يقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبي [172]بأنّه" كان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنّحل، والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والدقّة والسّؤدد والرئاسة والثروة وكثرة الكتب " . حتى أخبر " ابنه الفضل أنّه اجتمع عنده بخطّ أبيه من تواليفه نحو أربع مئة مجلد "[173]، وقد" كمل من مصنّفاته في فنون العلم وقر بعير " كما يقول ابن حيّان القرطبي[174].
وخلف ابن عبد الملك بن مسعود (494-578هـ) المعروف بـ" ابن بشكوال" صاحب كتاب" الصلة" عرف بمكانته العلمية وكثرة إنتاجه. فوصلت مؤلفاته إلى الخمسين في مختلف الموضوعات. وعدّ ابن الأبّار في كتابه"التكملة" [175] بعضا من مؤلفاته فقال:" ومن تواليفه أيضا: كتاب "الغوامض والمبهمات" في اثني عشر جزءاً. وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب ابن واجب ورتّبه ترتيبا عجيبا واستحقّه بذلك فحملناه عنه، وسمعناه منه مختصرا . وكتاب" الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة" في عشرين جزءاً. وكتاب" المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل" في واحد

---

(171) نفح الطيب، 2/69.

(172) العبر، 3/239.

(173) نفح الطيب، 2/ 78؛ العبر، 3/ 269.

(174) الذخيرة، ابن بسام، 1/1/ 141-142.

(175) التكملة، 1 / 306(رقم 831).

وعشرين جزءاً. إلى غير ذلك من مؤلفاته ومجموعاته الشاهدة له بالحفظ والإكثار ".

وكذلك الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (368ـ 463هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة في عدّة ميادين وهو مؤلّف كتاب" الاستيعاب في معرفة الأصحاب"[177]. ويذكر عنه ابن بشكوال انّه كان دؤوبا" في طلب العلم، وافتنّ فيه، وبرع براعة فاق بها من تقدّمه من رجال الأندلس، وألّف في الموطّأ كتبا مفيدة منها: كتاب التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد[178]، ورتّبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدّمه أحد إلى مثله، وعدّته سبعون جزءاً "[179]. ويورد الحميدي في جذوته والمقّري في نفحه سردا من مؤلفاته وهي كثيرة، وعديد منها ذوات عشرات الأجزاء وكلّها تمتاز بالأصالة والقوّة والعمق يكفيها ثناء ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس والتي نقلها إلينا كاملة صاحب نفح الطيب[180]. وفي رسالة ابن حزم القرطبي في فضل الأندلس وفي تذييل ابن سعيد الأندلسي لها [181]وفي غيرهما إيضاح أكثر وتفصيل أكبر ومزيد من الأمثلة، حيث احتوتا على عدد جمّ من أسماء المؤلفين ومن مؤلفاتهم، وشبيها بذلك فهرسة ابن خير الإشبيلي وأمثالها.

---

(177) طبع هذا الكتاب في القاهرة طبعة محققة في أربعة أجزاء.

(178) يطبع هذا الكتاب في المغرب الأقصى وقد صدرت منه أربعة أجزاء أو أكثر.

(179) الصلة، 678 (رقم: 1501) . نفح الطيب، 3/ 169 ـ 170.

(180) جذوة المقتبس، ص 367ـ 9(رقم: 874) . نفح الطيب، 3/ 169 ـ 170.

(181) راجع: نفح الطيب، 3/ 156 ـ 186.

فهل ـ بناء على ما تقدّم ـ تعتبر من المبالغة ما ذكره المقّري في نفحه عن عبد الملك بن حبيب السلمي (238هـ/852م) وله من العمر ثلاث وخمسون سنة أو يزيد[182]، من أنّ تآليفه بلغت ألفا[183]؟ وحين سئل عن عدد مؤلفاته قال: " ألف كتاب وخمسون كتابا " [184] فهل أنّ ذلك عدد أسماء مؤلفاته بين صغير يضمّه كراس أو رسالة وكبير احتوى الأجزاء العديدة؟ أو لعلّ العدد يمثّل مجموعة أجزاء مؤلفاته، وهي كثيرة. وهكذا أعطى هذا المجتمع الأندلسي المسلم ثماره وئيدا قويا تنمو مع الزمن فكلما تقدمنا زاد الإنتاج وكثر التأليف واتسع الاقتناء، وإن كنا لا نعدم كثرة منه في القرون الأولى.

(182) قارن: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/ 272(رقم: (816).

(183) نفح الطيب، 2/ 5ـ 6.

(184) الديباج المذهب، ابن فرحون، 155 .

سمت العلماء في الأندلس

وعنايتهم بجمع الكتب

عرف المسلمون، وعلماؤهم خاصة، بحبّهم للكتب وباقتنائهم لها، لأنها إحدى أدوات العلم والحافظة له. وهذه المحبة للعلم كانت ثمرة لبناء المجتمع المسلم الذي يقوم على العلم الحق وأنّه يقرب إلى الله تعالى، فهو جزء من العقيدة الإسلامية ومقوم أصيل في بنية المجتمع المسلم وحياته. وهذا الذي ذكر من اقتناء العلماء للكتب واهتمامهم بها واستيعابهم لها في كلّ بقعة من العالم الإسلامي المتسع وكذلك الأندلس يرد الحديث عنه وفيرا عند مؤلفي التراجم من أمثال: الحميدي (488هـ) في جذوة المقتبس، والضّبّي (599هـ) في بغية الملتمس، وابن الفرضي (403هـ) في تاريخ علماء الأندلس، وابن بشكوال (578هـ) في الصلة، وابن الأبّار (658هـ) في التكملة لكتاب الصلة، وابن عبد الملك المراكشي (703هـ) في معجمه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، وابن الزبير (708هـ) في صلة الصلة وابن الخطيب (776هـ) في الإحاطة في أخبار غرناطة، والمقّري (1041هـ) في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، وآخرين غيرهم جدّ كثير مما نجد بعضهم معتمدا عليه في هذا البحث.

فلدينا ثبت طويل جدا، في كتب التراجم والأخبار والميادين الأخرى، من العلماء كانت لهم عناية باقتناء الكتب وهم أنفسهم من المؤلفين الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم الضخام ـ كما وحجما وكيفا ـ التي رفعتهم إلى مصاف العلماء الأعلام. فكان من مستلزمات مكانتهم العلمية أن

تكون لهم مكتباتهم الخاصة. كما لاحظنا أنّ جمّاعي الكتب كانوا من أهل العلم حتى ولو لم يكن هو تخصصهم أو ميدانهم الذي عرفوا، لانشغالهم بالوظائف العامة، كالقضاء والوزارة وغيرها أو الأعمال العامة كالبستنة والتجارة وغيرها، وذلك أمر طبيعي لمكانة العلم ولمجتمع متعلّم، بالمعرفة شغوف.

وكلّ هذا كان يتمّ، وبمدى واسع وكثرة عجيبة وشمول مدهش، رغم عدم توفّر الطباعة وما تكلّف صعوبة الاستنساخ من الوقت والمال وضعف وسائل النشر والإعلام، وبعد الشقّة وطول المسافة وحال وسائل الاتصال والانتقال. فيذكر ابن بشكوال عن أبي محمد قاسم بن محمد بن سليمان ابن هلال القيسي (458هـ = 1066م) من أهل طليطلة ما يشير إلى كثرة مؤلفاته وجمعه للكتب وأنّه انتسخ ذلك بنفسه حيث" نسخ جلّ كتبه بخطّه. وكان كثير الكتب في الفقه والآثار حسن الضبط لها، ثقة في روايته. وكانت له حلقة في الجامع يعظ فيها الناس"(185).

وابن أبي الحباب كان" حافظا صحيح الرواية، جيد الضبط لكتبه"(186).

واشتهر بعض العلماء بضبطهم لما جمعوا من الكتب الأمّهات التي اعتبرت أصولا، من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي المعروف بابن ميمون (353ـ طليطلة 400هـ)، الذي " جمع من الكتب كثيرا في كلّ فن، وكانت جلّها بخطّ يده، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحا، أمهات لا يدع فيها شبهة مهملة، وقلّ ما يجوز عليه فيها خطأ ولا

(185) الصلة، 473 (1019).

(186) الصلة، 20 (35).

وهم، وكان لا يزال يتتبع ما يجده في كتبه من السقط والخلل بزيادة في اللفظ أو نقصان منه فيصلحه حيث ما وجده ويعيده إلى الصواب. وكانت كتبه وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة "[187] ومن الطريف أنّه يوم وقع الحريق في سوق طليطلة احترقت دار ابن ميمون " إلاّ البيت التي كانت فيه كتب أحمد، وكان ذلك الوقت في الرباط، وعجب الناس من ذلك، وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه "[188]؟

وكذلك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة (496ـ شاطبة 565هـ) كان "حسن الخط، من أهل الإتقان والضبط..وحكي أنّه كانت عنده أصول حسان بخطّ عمّه، مع الصحيحين بخط الصّدفي في سفرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه، في صحتها وإتقانها وجودتها "[189].

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود بن عبد الرحمن الأزدي ويعرف بابن صاحب الصلاة (542ـ625هـ)، من أهل شاطبة. وهو غير عبد الملك بن صاحب الصلاة (594هـ) مؤلّف كتاب المنّ بالإمامة، فقد" كتب ابن مسعود بخطّه علما كثيرا "[190]. وهي عبارة واضحة الدلالة على جمع الكتب وامتلاك مكتبة استنسخ كثيرا من أسفاره بنفسه، لا تدلّ على امتهان حرفة الكتابة أو الوراقة.

ومثل ذلك كان محمد بن إسماعيل المتيشي (625هـ) الذي" كان

---

(187) الصلة، 22 (37) .

(188) الصلة، 22.

(189) نفح الطيب، 2/ 159 ـ60.

(190) التكملة، 2/ 622 (1625) .

مليح الخط والضبط، مشاركا في علم الحديث والرجال، فاضلا زاهدا، يقول الشعر، وكتب علما كثيرا وأخذ عنه الناس. وكان أهلا لذلك "[191].

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التّجيبي (لقنت الصغرى، نحو 540ـ 610هـ)، فقد" كتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مئة وثلاثين، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السّلفي، صحبه واختصّ به وأكثر عنه، وحكي أنّه لمّا ودّعه في قفوله إلى المغرب سأله عما كتب عنه فأخبره أنّه كتب كثيرا من الأسفار ومئين من الأجزاء، فسرّ بذلك "[192].

لكن أبا عبد الله محمد بن عبيد بن أيوب الدبّاج (317هـ) من أهل قرطبة " وكان يتعاطى عمل الديباج، فلذلك كان يعرف بالدبّاج "[193] اعتمد على غيره في النّسخ، إذ" كانت كتبه بخطّ الوراقين "[194]. فلقد مارس التجارة إلى جانب العلم، رغم تقدّمه فيه وتدريسه له. فقد كان عالما ثقة جليلا وشيخا طاهرا نبيلا، وحين حلّ بالقيروان سمع منه أكابر الناس وحفوه بالعناية والرعاية وأكرموه وتلقوا عنه فرحين به ومعتزين. وكان هذا حال العالم الإسلامي في كل بقعة منه لا في الأندلس والمغرب وحدها، فكانت رعاية العلم وأهله يكرمون لما يقومون به من واجب في احتواء العلم وفي بثه والحفظ عليه نطقا وهيئة ودقة واستقامة وقدوة، وبغير تمثل العلم الحق وسلوك دروبه ما كان ينظر المجتمع المسلم إلى من احتواه ادّعاءً إنما من

---

(191) التكملة، 2/ 623 (1627) .

(192) نفح الطيب، 2/161 .

(193) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 37 (1199) .

(194) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 37 ـ 38.

احتواه سلوكا والتزاما يراه الناس فيه متمثلا ثم يقبلون على الاستماع إليه والتلقي عليه، فكما كان العلم فريضة في المجتمع المسلم كذلك الالتزام به بل إنّ العلم للالتزام والتمسك به والتمسك بأوامره، وهكذا فهم عند المسلمين وبهذا كانت مكانة العلماء، وما يعرفون غير هذا. ومن أجل هذا تعلموا وكان بهذا العلم سمات ومتطلبات والتزامات كلها تنبع من العين نفسها تفيض بهدي الله وتغمر الأرض اخضرارا؛ لأنها فيض من الخير الأمين والهدى المنير والندى الظليل. وبغير هذا السمت والتجرد وبعيدا عن هذا الدرب والهدي لا نجد لمن حوى في رأسه علما أو امتلأ صدره نصوصا مكانة في ذلك المجتمع الرباني الذي يقوم على الخير امتثالا وبالحق التزاما وبهدي الله سلوكا، تتزيا الأمة الإسلامية بكل ذلك وشاحا أبيض ناصعا يلفها ويرتفع بها ويحفها في مسيرتها الكريمة مبتغية رضا الله معمرة أرضه فتحقق إنسانية الإنسان دربا فريدا وثابا لا يعرف التوقف والخمول أو التردد والخوف أو المساومة والنفعية إنما يتحرك بعقيدة الإسلام سالكا دربها الشرعي متجها إلى الله رب العالمين. وبهذه الآفاق الواسعة التي ضمت البلدان الإسلامية الممتدة في عالم واسع عرف هذه المعاني وعاشها وطبع بها متميزا من غيره وممتازا عما عداه. كان الخير وأهله والعلم وحملته والحق وجنوده في كل بقعة من هذا العالم الوسيع يجد عين المكانة لا امتياز إلا لمن امتاز بالعلم الخير والتقوى التي ترفع الإنسان، لا ينظرون إلى أي نسب من قوم أو أرض أو حسب إلا لنسب الإسلام به تتميز الأمور وتعرف القيم ويرتقي الإنسان، فكان كل عالم في كل فن وعلم وتخصص يتجول في أي بقعة من عالمه الإسلامي وكأنه في بستان مملوء بالأزهار والأثمار تغرد فيها الأطيار ويستريح حيث يريد لا يجد ما يقلقه أو يزعجه بل يجد التكريم والتقديم بما اكتسب

من علم خير وما امتاز به من تقوى وعمل صالح كلهم بذلك وبغيره يقتربون إلى الله رب العالمين ويسيرون في دروبه يملأ نفوسهم حبه. ولذلك كان العالم المسلم وغيره ينتقل من بقعة إلى أخرى ويتولى الوظائف والأعمال ويتبوّأ المكانة ويوضع في خير مثابة بما أهّله علمه وما بان عليه من سمت تقي كريم وما عاش من مواقف إسلامية تفخر بها النفوس وترتفع الرؤوس.

وهذا الذي ندعو إليه اليوم أن يكون العلم عند الناس، حرا كان أو موجها في كافة معاهدنا كافّة، وبمراحلها وسائل المعرفة في بلداننا، خيرا فاضلا ربانيا حتى تتولى من جديد إقامة الحضارة الإنسانية الكريمة الإسلامية التي تنتظرها البشرية وحرمت منها منذ فاءت إلى غير هذا الدين. ومسئولية المسلمين قبل غيرهم في إقامة هذا الصرح والدعوة إليه والعمل له أن يتمثل هذه المعاني بأنفسها ليقرأها الناس سلوكا قبل الاستماع إليها لنكون خير دعاة وخير حماة وبناة للمجتمع الإسلامي القادم إن شاء الله، وذلك خير من كل احتفال يتهيأ له العالم الإسلامي بالقرن الخامس الهجري، ولا بأس بكل ذلك، ولكن أخذ النفس بالإسلام وبناء حياتها عليه وإقامة أمورها فيه إيمانا واحتسابا وعملا ودعوة وجهدا وجهادا، ذلك لكي يعيش هذا الدين في النفس يتمثله المسلم في الحياة ويقيمه في كيانه محتفلا بسلوكه فيه وبمعتقده وبتحركه في الحياة في كل لحظة ذلك هو الامتثال الحق لنصرة هذا الدين، وفقنا الله لذلك ومكننا منه، وأبعدنا عن كل ما ينقص من هذه الحالة، وجمعنا على شريعته ووفقنا لحمل رايته، وجعلنا ممن يتشرفون بإقامة مجتمعه ودولته، نحن ومن نتولاهم من الإخوة والأبناء والأحباب، وفقنا الله للقيام بكل ذلك إن شاء الله تعالى وبعونه ومنته، آمين والحمد لله رب العالمين.

نشر العلم واحتساب العلماء فيه

(صورة أندلسية)

كان المجتمع الإسلامي دوما متميزا في أموره وأحواله كافّة تميز الإسلام، وهو أمر طبيعي فإنّ هذا الدين أنزله الله تعالى ليأخذ به الإنسان فينال السعادتين في الدنيا والآخرة ويعمر هذه الأرض لتشرق بنور الله، وبغير ذلك يبقى الإنسان متخبطاً في الظلام تائها في البيداء مرتكسا في الضلال. وكل يوم يزداد كل أحد في ذلك دليلا ويقينا في هذه الحقيقة الصادقة التي لا ترتضي الانتقاص أو الضمور أو التحجيب. وبدأت تظهر لكثير ممن ابتعدوا عن هذا الدين فهم يفتشون عن مخرج ومنقذ ومنهم من اهتدى إلى نور الله، والقادم في الطريق كثير بعد أن يستيقنوا من هذه الحقيقة الواضحة.

إنّ كل أمور المجتمع المسلم تتجه إلى الله وتستسلم إليه وتسعى فيه وتأخذ بشرعه محبة وطاعة وهذا يجعلها أقوى من كل دافع وأعلى من كل مستوى وأمضى من كل هدف، ملتزمة بالطريق الذي بينه الله ولا يعيه الإنسان لولا هداية الله ولا يعرف منه شيئا وليس له بدونه إلا الضلال والخسران في الدارين. والمسلم حريص على كل خير لا يسأل مغنما أو منفعة أو محصولا وخير ما يبتغي فقط رضوان الله وهو أكبر وأعلى وأحب إليه من كل شيء. وعلماء المسلمين أظهر في هذه الصفات وأسعى لها وأحرص عليها ولذلك هم دوما يضحون بكل شيء ويبذلون له ليحققوا هذه المعاني، والظاهرة وافرة غامرة في المجتمع المسلم وحضارته. ومن هذه

الظواهر سعة العلم والحرص عليه والسعي لنشره دون مقابل في كثير من الأحيان احتسابا لله وحتى من أخذ الأجرة لضرورة أو توجه فقهي طبعا فهو نوى لله تعالى سعيه وجهده وبذله للعلم، وكانت تلك مواصفات العلماء في تدريسهم وإقرائهم واحتسبوا ذلك لله تعالى في كل ما يخدم العلم وينفعه وينشره تدريسا وتأليفا وإرشادا، ومثلما احتسبوا العلم احتسبوا كثيرا مما يخدمه للكتب والمكتبات والمدارس وما يعاون في استمرار هذا الأمر وإقامته ومنجزاته، وهذا هو السمت الواضح لدى العموم لا سيما العلماء الذين انطلقوا في الحياة طاعة لله يخدمون المجتمع بكل شيء ويبذلون له ويضحون من أجل هذا الدين وتأكيد المعاني الإسلامية في تصرفاتهم وسلوكهم وأموالهم كافة.

تلك أمور واضحة في أنحاء العالم الإسلامي الواسع وحضارته ونتلمسها بسهولة ووضوح حين اطلاعنا على الكتب العامة والتراجم وأي من المراجع التي تحدثت عن هذا الأمر، وللأندلس من ذلك نصيب كبير مثل بقية العالم الإسلامي الواسع في قرونه الكثيرة. والمرجو إن شاء الله تعالى أن يكون القرن الحالي الجديد بداية لاستعادة هذه المكانة وتثبيتها ورفع راية الإسلام خفاقة في كل ميدان حين يقام المجتمع المسلم ويبتنى على منهج الله ويتجه في حبه ورضاه يقود موكب الإنسانية لبناء الحضارة الربانية الكريمة التي تحقق إنسانية الإنسان وتأخذ به إلى طريق الله ليسعد في الدارين إن شاء الله تعالى.

وسنستعرض في البحث الحالي الأمثلة العملية لبيان هذه المعاني التي

عاشها المجتمع المسلم بسعة وشمول ووضوح لتقديم صورة القدوة ينظر فيها المسلمون وينتفعوا ويبنوا حياتهم على دين الله وشريعته منهاجا قويماً وطريقا سليما وسمتا كريما.

إنّ المسلم يسعى باهتمام بالغ لكل ما فيه خدمة للإسلام والمسلمين ويحقق المعاني الإسلامية ويشيعها، وأن نشر العلم بأمور الإسلام وبث الفقه فيه وتعليمه هو المحافظ على تثبيت كل المعاني وإشاعتها وبالقدوة التي كان العلماء وعموم الناس ملتزمين بها ومتمثلين لتلك المعاني، فينشأ كل أحد ويتربى في جو مليء بالعلم المتمثل في سلوك إنسان حيا متحركا في كل مجال وميدان، والكل يحرصون عليه ويسعون إليه ويبذلون له. وحرص العلماء أكثر من غيرهم على نشر هذا العلم وبذلوا له وحثوا الناس عليه سواء أخذوا عليه أجرا أو لم يأخذوا، وكثير منهم من عمل ذلك وأمثاله حسبة لله وقربى ومحبة.

ورغم ألفة عرف التقاضي عن التدريس، فإنّ عددا متوافرا من علمائنا كان يدرّس دون مقابل خلال حياة الحضارة الإسلامية التي نرجو لها أن تعود لتتسلم زمام ركب الحياة، تقرّبا إلى الله تعالى. والأمثلة كثيرة. كذلك كان ابن بشكوال (578هـ) صاحب كتاب الصّلة الذي يقول عنه ابن الأبّار (658هـ) في تكملته بأنّه حدّثه" عنه جماعة من شيوخنا الجلّة ووصفوه بصلاح الدخلة وسلامة الباطن وصحّة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه، ولين الجانب وطول الاحتمال في الكثرة للإستماع رجاء المثوبة "(195).

(195) التكملة، ابن الابار، 1/306.

ومن هؤلاء أيضا أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن وضّاح اللخمي (587هـ)، غير سميّه المشهور. وأبو القاسم بن وضّاح اللخمي من غرناطة ونزل جزيرة شقر. وكان قد سافر إلى الشرق الإسلامي حاجّا وطالبا للعلم" وأقام في رحلته نحوا من تسعة أعوام، وقفل إلى الأندلس، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرة ولا قبل هدية "(196).

الاحتساب والتحبيس

إن احتساب الأعمال لله والتدريس أمر واضح في المجتمع المسلم، وكذلك تحبيس الأشياء الكثيرة للمسلمين. والتحبيس والأحباس هو الوقف لأشياء كثيرة تجري لنفع المسلمين. وهذه ظواهر ما زالت بحاجة إلى دراسة في المجتمع المسلم وحضارته ويتميز بها مثل أشياء كثيرة غيرها. وقد شملت هذه الأمور نواحي الحياة كافة حتى بلغ حد الترف أو الطرافة والتفكير في كل أمور المسلمين وحياتهم وميادينهم. وكان من هذه الأمور في الاحتساب التدريس وفي التحبيس الكتب والمكتبات.

وتقديم العون والحصول على الكتب لطلبة العلم وبذل هذا العلم والسعي لنشره ووهب كتبه للناس بأيّ شكل كان سنّة متبعة وعرف محمود في المجتمع الإسلامي وحضارته، رغم ضخامة الاحتياج إليه أحيانا. تلك صفة عرفها المجتمع المسلم بأوسع نطاق وأعلى صورة وأكرم حالة. فالمجتمع الكريم لا يبخل بالخير بل يسعى إليه ويحتسبه.

---

(196) التكملة، 2/ 544. نفح الطيب، 2/ 160.

فالاحتساب في مجال العلم - مثل غيره - إحدى ثمار ذلك البناء الاجتماعي للمجتمع المسلم القائم على العقيدة الإسلامية وشريعتها. وليس هو إلاّ واحدا من تلك المظاهر العلمية والدوافع الأصيلة الجميلة التي أسهمت في إيجاد هذا الجوّ الرفيع الفريد. فهي وإياها مرتبطة بالروح نفسها، القائمة على عين الوجهة، تسير بالخط نفسه وتعمل للهدف ذاته محفوفة بأكرم الدوافع. فهذا أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي الإشبيلي المعروف بابن الرومية (637هـ) كان ممّن تحلّى بهذه الصفة. وقد كان إماما في الحديث ومتقدّما في علم النبات وله في كلّ منهما تصانيف كثيرة وكان " كثير الكتب، جمّاعا لها في كلّ فنّ من فنون العلم، سمحا لطلبة العلم، ربما وهب منها لملتمسه الأصل النفيس الذي يعزّ وجوده، احتسابا وإعانة على التعليم؛ له في ذلك أخبار منبئة عن فضله وكرم صنعه. وكان كثير الشغف بالعلم، والدؤوب على تقييده ومداومته سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته وحاجات الناس إليه، إذ كان حسن العلاج في طبّه المورود، الموضوع، لثقته ودينه "(197).

وكانت فكرة الاحتساب (أي جعل العمل لوجه الله تعالى) في التأليف - كما في التدريس - واضحة بيّنة، دفعت المسلمين أيضا إلى التفوّق والتعمق والعمق والإنتاج الغزير مع البذل لهذا الشأن، جهدا وإنفاقا ورحلة. وهكذا وجهة المسلم في كلّ عمل. فهذا أبو العبّاس أحمد بن هشام الجذامي الزوزنالي (586هـ) وهو مروي سكن قرطبة " كان مقرئا متقنا ضابطا مجوّدا حسن السمعة ملائم الصمت أقرأ مدّة إقرائه كتاب الله

(207) الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 215 - 216.

محتسبا "[198]. وكذا كان ابن مضاء (592هـ) حين قدم " الأندلس تفرّغ لإفادة العلم صابرا محتسبا ممكّنا طلاّبه منه إلى أن توفي عفا الله عنه بإشبيلية "[199].

وكان سعيد ابن الخطيب الجدّ الأعلى لذي الوزارتين الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (776هـ) في مدينة لوشة، بين غرناطة وإشبيلية، " يذيع بهذا المكان فصولا من العلم، ويجهر بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاق المدلجة الحنين إلى نغمته، والخشوع إلى صدقه، فتعرّس رحالها لصق جداره، وتريح ظهرها موهنا، إلى أن يأتي على ورده "[200].

وكان هذا أمرا عاما في العالم الإسلامي الواسع المتوحّد. فلقد كان محمد بن مرهوب بن الحسن أبو نصر الفرضي الضرير (530هـ) صاحب المصنّفات الحسنة " لا يأخذ أجرة على تعليمه الفرائض والحساب ولكن يأخذ الأجرة على تعليمه الجبر والمقابلة ويقول: الفرائض مهمّة، وهذا من الفضل "[201].

ومن لطائف ما يروى في ذلك فعل أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد بن الحذاء القرطبي (416هـ) المدفون" بباب القبلة على مقربة من قبر حنش بن عبد الله الصنعاني رحمهما الله "[202].

---

(198) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، 1/563.

(199) الذيل والتكملة، 1/222.

(200) نفح الطيب، 5/10.

(201) الوافي بالوفيات، الصفدي، 5/100.

(202) الصلة، ابن بشكوال، 507.

ونقل ابن بشكوال قول أبي علي الغساني في ابن الحذّاء بأنّه كان" أحد رجال الأندلس فقها وعلما ونباهة، متفننا في العلوم يقظا، ممن عني بالآثار وأتقن حملها، وميّز طرقها وعللها، وكان حافظا للفقه، بصيرا بالأحكام إلاّ أنّ علم الأثر كان أغلب عليه "[203]. وله عدّة مؤلفات، وكان قبل وفاته قد "عهد أن يدفن بين أكفانه كتابه المعروف بالإنباه على أسماء الله فنشر ورقه وجعل بين القميص والأكفان، نفعه الله بذلك "[204].

التحبيس

وكان عدد من أصحاب المكتبات الخاصة والعلماء يحبس (يوقف) مكتبته بعد وفاته، أو شيئا منها في حياته. والوقف أو الأحباس ـ كما يسمّيها، وحتى الآن أهل الغرب الإسلامي ـ تشريع اجتماعي معروف بليغ المعنى عميق القيمة كبير المدلول ذو أثر بيّن ضخم النتيجة. وهو يدلّ على قوّة البنية الإسلامية وسلامة البناء وخلوصه لله تعالى والتوجّه لمرضاته. وهو عنوان المحبّة للناس والاهتمام بمصالحهم والعمل بما ينفعهم. وهو تعبير عن رابطة خيّرة تلغي طابع المصلحة الذاتية والنفعية بأيّ صورة وتتجاوز حبّ الذّكر وتزيل معاني الحقد والمنافسة الفردية الآثرة وتؤكّد الإيثار وتربي المحبّة صادقة تحمل التفكير والاهتمام بصالح المسلمين العام المستمرّ في حياة فاعلها وبعد وفاته. وهي بذلك تذيب كلّ الصلات والروابط الضيقة، وطنية أو قومية أو غيرها وتسمو فوق كلّ اعتبارات لأنّها تعتبر العقيدة

---

(203) الصلة، 506.

(204) الوافي بالوفيات، 5/196 .

الإسلامية منشئة للرابطة الحقّة ومصلحة أتباعها القائمين بها وعليها والعاملين لأجلها هي المصلحة الحقيقية والسعي الأصيل والهدف النبيل، وتمثيل العقيدة الإسلامية والاستجابة لشريعتها هو الاعتبار المرغوب. وأحسب أنّ الوقف بحاجة إلى دراسة دقيقة شاملة.

لقد أخذ التحبيس أو الوقف كلّ الأشكال والصور في الحياة الاجتماعية التي تعبر بقوّة متفرّدة عن هذا المعنى، كان منها تحبيس الكتب. وإنّ من يقوم بهذا يعطي أعزّ ما لديه وأكثر وأحسن ما يملك وهو ضخم كبير وخاصة من هؤلاء العلماء الذين تضمّ مكتباتهم المؤلفات الكثيرة قد تبلغ الآلاف منها مؤلفاته، ومنهم المكثرون في التصنيف. وفي المكتبات المحبسة نجد عددا من كتبها بخطوط مؤلّفيها. فكان الواحد من هؤلاء يؤثر المسلمين لما أنفق من أجله الكثير من وقته وجهده وماله وعصارة فكره. وهو عطاء عام دائم غير متعلّق بشخص أو قوم أو وطن فلا يجلب نفعا أو ذكرا بين الناس مصنوعا، أو شكرا مسموعا، فهم لا يبحثون عن ذلك إنّما عن رضا الله تعالى. فكانت الأمور تجري في إطار التقوى وتتساوى مع مقدار التمسّك بالعقيدة والحرص حتى على المندوب فضلا على المفروض. ومن كان في الدين أعرف كان في هذا الأمر أمضى. والأمثلة ترسم صورة لهذا المعنى وتشير إلى واقعية هذه المعاني وحضورها حيّة في المجتمع الإسلامي يوم كان يصدر عن الإسلام ويقوم على عقيدته فكان ذلك ثمرة لتلك المعاني التي ملأت الرؤوس وغمرت النفوس واستقرّت في القلوب فتحوّلت الرغبات والإرادات والوجدانات والعواطف والفكر في هذا الاتجاه، فرحة مستقرّة لممارستها، راضية هنية قوية مستبشرة لتحقيقها،

ساعية حريصة للمحافظة عليها وإشاعتها.

فأبو محمد قاسم بن حامد الأموي من أهل ريّة" كان صبورا على النسخ، جلّ كتبه بخطّه، وكان زاهدا، فاضلا، ناسكا، ورعا مع الفقر والإقلال. وكانت وفاته قبل الفتنة، وحبّس قاسم كتبه. من كتاب ابن سعدان "[205]. وقاسم بن سعدان (347هـ) من أهل ريّة وسكن قرطبة، ولعلّه هو صاحب الكتاب المذكور توّا، أوقف مكتبته عند الوفاة على الطلبة. فيذكر ابن الفرضي أنّه" كان ضابطا لكتبه متقنا لروايته، حسن الخطّ، جيّد الضبط، عالما بالحديث، بصيرا بالنحو والغريب والشعر. ولا أعلم بالأندلس أحدا عني عنايته. ولم يزل في نسخ ومقابلة إلى أن مات. ولم يحدّث، وحبّس كتبه فكانت موقوفة عند محمد بن محمد بن أبي دليم، وكثير من سماعنا عليه فيها "[206].

وأبو عمر هارون بن سالم (238هـ)، وهو قرطبي قديم، "وكان منقطع القرين في الفضل والزهد والعلم، وكان يقال فيه إنّه مجاب الدعوة. وكان يحفظ المسائل حفظا حسنا، وكانت كتبه موقوفة عند أحمد بن خالد "[207] قريبه طريق أمّه.

والحافظ أبو محمد عبد العزيز الأندلسي (617هـ) كان" ديّنا متصوّفا كبير القدر ... ثقة فاضلا، صاحب حديث وسنّة، كريم الأخلاق، وقال

---

(205) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/ 360.

(206) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 367.

(207) المقتبس، ابن حيان، 2/ 221.

مفضل القرشي: كان كثير المروءة غزير الإنسانية، وقال ابن الحاجب: كان كيّس الأخلاق، محبوب الصورة، ليّن الكلام، كريم النفس، حلو الشمائل، محسنا إلى أهل العلم بماله وجاهه، وقيل: إنّه أوصى بكتبه للشرف المرسي، رحمه الله تعالى "[208].

وأبو بكر محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الأندلسي الجيّاني(563هـ) الذي حجّ وطلب العلم ورحل من أجله وصحب العلماء، منهم أبو القاسم ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق، وبلغ الموصل فأقام بها مدّة يسمع منه ويأخذ عنه، ثمّ انتهى إلى حلب فاستوطنها وسلّمت إليه خزانة الكتب النورية وأجريت عليه جراية. وكان فيه عسر في الرواية، والإعارة معا، ووقف كتبه على أصحاب الحديث "[209].

والحافظ الحميدي الأندلسي (488هـ) صاحب المصنفات الكثيرة فهو " من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أر مثله في عفّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ... ووقف كتبه على أهل العلم، رحمه الله تعالى "[210].
و" حسين بن إبراهيم بن محمد بن ثابت من أهل قرطبة. وأصل أبيه من ماردة وهو ابن بنت أبي علي الغساني" فقد" صارت إليه كتب جدّه أبي علي وأصوله العتيقة "[211].

وأبو مروان عبد الملك بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة بن الصقيل

---

(208) نفح الطيب، 2/ 626.

(209) التكملة، 2/ 501.

(210) نفح الطيب، 2/ 114ـ115.

(211) التكملة، 1/ 274.

(540هـ) من أهل وشقة ونزل بلنسية الذي" عني بالتجوّل في طلب العلم ولقاء حملته" ، وتوفي عن غير وارث إلاّ بيت المال، فصارت كتبه في بلنسية وماله بالمرية لبيت المال "[212].

وهذا يشير إلى تنظيم مثل هذه المسائل، وأنّ بيت المال ليس في الأموال بل في أمور أخرى مثل الكتب. فهل كانت الكتب في مثل هذه الحالة تقام لها مكتبة تجمع إليها المكتبات أو يوجّهه بيت المال إلى المكتبات العامة أو المؤسسات العلمية ؟ لكن إبقاء الكتب في بلنسية مستوطنه قد يفصح عن وجود مكتبة عامة أو أكثر بأن تكون أحدها رئيسية أو أنّ المساجد تضمّ مكتبات صرفت إليها هذه الكتب ولعلّ الأول أرجح، إضافة إلى إفصاحه عن أنّ بلنسية أولى بكتب نزيلها من غيره.

ومن المؤلفين من يوقف أحد مؤلفاته أو بضعا منها وقفا عاما أو محدودا، وقد يكون الواقف ليس مؤلّفا بل يختار من الكتب ما يراه ليوقفه. من ذلك ما يرويه لنا المقّري في نفحه عن توقيف سلطان الأندلس أبو عبد الله محمد(الثاني) نسخة من كتاب الإحاطة لابن الخطيب على بعض مدارس غرناطة، ويكتب لنا حجّة الوقفية المكتوبة على ظهر النسخة كما نقلها الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الواد آشي: " كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، والفائقة الكمال من الإحاطة بتاريخ غرناطة المحبسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخط قاضي الجماعة، ومنفّذ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير الرئيس المعظّم يحيى بن عاصم - رحمة الله

(212) الذيل والتكملة، 5/20.

تعالى عليه ـ ما نصّه: ... " ثمّ يورد نصّ الحجّة مبينا مكانة العلم وفضله وقيمة الكتاب الإحاطة ومنزلة مؤلفه" والشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ من أثر هذه الدولة النصرية ... " .

ثمّ يتحدّث عن السلطان الموقف مبيّنا أنّه أوقف هذا الكتاب مع غيره من الكتب الجيّدة" ممّا هو واحد في فنّه وفذّ في معناه، عقد في جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هناك ليشمل به الإمتاع، ويعمّ به الانتفاع، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ويتولّى المثوبة على هذا العقد الدسيم. وهذه النسخة في اثني عشر سفرا متقنة الخطّ والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأوّل منها، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمان مئة، عرف الله تعالى بركته بمنّه " .

ولم يكن الوقف مقصورا على مؤسسات علمية والمرافق الثقافية الموجودة داخل المدينة الواحدة، وإنّما ـ تبعا لدوافع الوقف ـ يتعدّاه إلى المدن الأخرى الأندلسية بل إلى خارج الأندلس من مناطق العالم الإسلامي على اعتبار التوحّد والارتباط بين أجزائه، ويتكلّف المحبس إرسالها. ويتّضح لنا بأنّ عمليات الوقف هذه كانت تتمّ في حياة محبسها مؤلّفا كان أو غير مؤلّف. فيذكر المقّري في نفحه أنّ " لسان الدين ابن الخطيب" ـ رحمه الله تعالى ـ أرسل في حياته نسخة من الإحاطة إلى مصر، ووقفها على أهل العلم، وجعل مقرّها بخانقاه سعيد السعداء، وقد رأيت منها المجلد الرابع، وهذا نصّ وقفيته: الحمد لله وحده، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمر ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي ـ نفع الله تعالى به ـ عن موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله

محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله ابن الخطيب الأندلسي السلماني - فسح الله تعالى في مدّته وفتح لنا وله أبواب رحمته، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته، وأسكننا وإياه أعالي جنته - جميع هذا الكتاب تاريخ غرناطة، وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنّه فوّض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها وشؤونه جميعها والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها تفويضا عاما على العموم والإطلاق والشمول والاستغراق، لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه إلاّ أسنده إليه، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه - كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرّخ بثالث ذي الحجّة عام سبعة وستين وسبعمائة، وقفا شرعيا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخا ومطالعة، وجعل مقرّه بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم الله تعالى واقفها وجعل النظر في ذلك للشيخ العلاّمة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة، حرسه الله تعالى، ثمّ من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحلّ لأحد يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم أن يبطله ولا شيئا منه، ولا يبدله ولا شيئا منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه، إنّ الله سميع عليم، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرّم عام ثمانية وستين وسبع مئة "(213).

---

(213) نفح الطيب، 7/ 105-106.

ولعلّ هذا يشير إلى أنّ الوقفية كانت تكتب على كلّ جزء من أجزاء الكتاب كما في المثال السابق أو على الجزء الأوّل منه كما في المثال قبله. وأنّ الكتب المحبسة كان يكتب عليها أحيانا خاصّة بالتحبيس الإفرادي. ولعلّ هذا لا يشمل دوما تحبيس مجموعات الكتب التي ربما كان ذلك يتمّ في كتاب منفصل أو يذكر شفاها أمام مجموعة من الناس بما يشبه الوصية أو هي.

لكن ابن الخطيب لم يقتصر في تحبيسه ذاك على الإحاطة بل شمل بعض مؤلفاته الأخرى منها كتاب روضة التعريف بالحبّ الشريف. ولدينا وثيقة في هذا حفظها لنا ابن خلدون في مذكراته" التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ". وهي رسالة كتبت" في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة" . بعث بها إليه صديقه لسان الدين ابن الخطيب جاء فيها: " أنّ كتابا رفع إلى السلطان في المحبّة، من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة، أشار الأصحاب بمعارضته، فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبّة الله؛ فجاء كتابا ادّعى الأصحاب غرابة، وقد وجّه إلى المشرق صحبة كتاب تاريخ غرناطة، وغيره من تاليفي. وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر؛ وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراب، يتكلّف أغراض المشارقة "(214). وهذا يشير إلى أنّ ابن الخطيب أرسل هذه الكتب المحبسة إلى القاهرة جملة واحدة.

وظاهرة وقف أو تحبيس الكتب ـ ككثير من الظواهر المشار إليها ـ ليس مقصورة على الأندلس طبعا بل شائعة عامة في العالم الإسلامي كافة لأنّها

(214) التعريف بابن خلدون، 120، 121.

من ثمار البناء الإسلامي للمجتمع ورائعة من روائعه الكثيرة المتفردة تفرد الإسلام ذاته كلما كان الأخذ به وبشرعه وبمقدار ذلك وعمقه. ولعلّه يحسن ذكر أمثلة لهذه الظاهرة من أجزاء العالم الإسلامي. فأبو نصر أحمد ابن يوسف السليكي المنازي الكاتب (437هـ) " كان من أعيان الفضلاء وأماثل الشعراء، وزر لأبي نصر أحمد بن مروان الكردي، صاحب ميافارقين وديار بكر . . وكان فاضلا شاعرا كافيا، وترسّل إلى القسطنطينية مرارا وجمع كتبا كثيرة ثمّ وقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد، وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين، ومعروفة بكتب المنازي "(215).

والحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (463هـ) صاحب تاريخ بغداد والمصنّفات الكثيرة " كان قد تصدّق بجميع ماله، وهو مئتا دينار، فرّقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدّق عنه بجميع ما عليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، ولم يكن له عقب، وصنّف أكثر من ستين كتابا، وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي أحد من حمل جنازته "(216).

والحافظ الكبير محمد بن محمود محبّ الدين أبو عبد الله بن النجار البغدادي (643هـ) صاحب المؤلفات والتاريخ " الذي ذيّل به على تاريخ الخطيب لبغداد واستدرك فيه على الخطيب فجاء في ثلاثين مجلدا دلّ على تبحّره في هذا الشأن وسعة حفظه وقد نقلت عنه تراجم عديدة في هذا الكتاب رحم الله مصنّفه، وكان إماما ثقة حجّة مقرئا مجوّدا حلو المحاضرة

---

(215) وفيات الأعيان، ابن خلّكان، 1/ 143.

(216) وفيات الأعيان، 1/ 93.

كيّسا متواضعا، اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ، ورحل سبعا وعشرين سنة ... ووقف كتبه بالنظامية "(217).

ويورد المثل التالي ليؤكّد هذه الظاهرة ويبيّن عمقها واعتياديتها بل وتوفير من يقوم برعاية عملية الوقف والإشراف عليها ثمّ الإشارة إلى تنوّع عملية الوقف حتى في مجال الكتب كما تتعدّد في كلّ الأمور الأخرى. فأبو صالح الحافظ المؤذن الصوفي أحمد بن عبد الملك النيسابوري (470هـ) محدّث نيسابور " كان عليه الاعتماد في الودائع من كتب الحديث المجموعة في الخزائن الموروثة عن المشايخ الموقوفة على أصحاب الحديث وكان يصونها ويتعهّد حفظها ويتولّى أوقاف المحدّثين من الحبر والورق وغير ذلك، وأذّن على منارة المدرسة البيهقية سنين احتسابا ووعظا. وكان يأخذ صدقات التجار والرؤساء ويوصلها إلى ذوي الحاجات وإذا فرغ جمع وصنّف وأفاد، وكان حافظا ثقة ديّنا خيّرا كثير السماع، وكتب الكثير بخطّه وعمل تاريخ مرو وكتب عن الخطيب، وكتب الخطيب عنه "(218).

وقد أشير إلى أنّ الوقف كان في كلّ القضايا التي تمسّ الحياة الاجتماعية بكلّ أنواعها السلمية والحربية، ومرافقها فردية أو عامة تخصّ النساء والرجال والكبار والأطفال يقوم بها النساء والرجال. إذن فهي ليست مقصورة على الكتب والأمثلة على غيرها كثيرة جدًّا تحتاج إلى دراسة مستقلّة تتوفّر لها مادّة علمية دسمة مضيئة لكن بالإمكان ذكر بعض الأمثلة للإشارة.

---

(217) الوافي بالوفيات، 5/ 9ـ 10.

(218) الوافي بالوفيات، 7/ 156ـ157.

لقد كان خلصة الزاهد من أهل قرطبة" بزازا، ثم ترك التجارة وقسم ماله بين بنيه وأسهم الفقراء منه، و حبّس داره على أولاده فإذا انقرضوا رجعت إلى المسجد المجاور لها، و يعرف بمسجد اعتزاز" [219]. وأبو البركات أحمد ابن عبد الوهاب بن محيى بن السيبي (514هـ) الذي تولى تأديب أولاد المستظهر، فقد "خلّف مالا كثيرا قيل إن مبلغه مئة ألف دينار، وأوصى بثلثي ماله و أوقف وقوفا على مكة والمدينة. وكان كثير الصدقة يتفقد الفقراء بالحرمين وأهل العلم"[220]. والأمثلة في تاريخ الحضارة الإسلامية كثيرة وفيرة غزيرة، مادتها كافية لدراسات متعددة وأطروحات كثيرة تتناول نواحيه المتعددة دارسة حقائقه وطبيعته وارتباطه الخير النيّر المضيء وهو أمر يستحق من مسلمة اليوم العناية اللازمة لإضاءة الحياة به وإظهار الصور العملية لينتفع بها المسلمون عمليا ويأخذون بها حياتهم عائدين إلى شريعة الله ليسعدوا في الدارين إن شاء الله تعالى.

و يتبين من عملية الوقف، التي لا تقدّم لشخص بعينه أو ذي جاه أو رئيس أو سلطان أو غني بل هي عامة لا تحمل أية صفة شخصية بل في موطن الانتفاع لمن ينتفع بها خدمة للمصلحة خلال العصور المتعاقبة استجابة لأمر الله ومحبة فيه وطمعا في رضاه. وهذا يشير الى عمق هذا الارتباط الذي أنشاته العقيدة الاسلامية وشرعته وكان من ثمراته حب المسلمين والسعي لما ينفعهم من حيث كونهم مسلمين بل ودون معرفتهم في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي الواسع. فكم الذين ينتفعون بوقف

---

(219) التكملة، 1/313 (رقم : 846).

(220) الوافي بالوفيات، 7/162.

شخص لم يلتقوا به أو يعرفوا عنه او سمعوا به، بل إن هذه هي الصفة الغالبة للوقف ويدركها الموقف دون سعي لغيره أو تذمر فيه بل يشعر بالانسجام الكامل والطمأنينة الغامرة لأن ذلك يقوده خطوة الى رضا الله ويضع لبنة تعين في قوة و بناء المجتمع المسلم.

إنّ موضوع الوقف خطير ومهم وجليل الشان وذو أبعاد غائرة معبرة يفصح عن قوة بناء المجتمع المسلم وجمال العقيدة الإسلامية وروعة شريعتها وتميزها وتفردها وصفائها وعلو خلقيتها، فإنها ربانية. وهذا الاتجاه فضلا على سموه لا يمكن أن يتوفر في غير هذه الشريعة السمحاء الغراء البيضاء.

إنّ موضوع الوقف جانب اجتماعي وإنساني واضح في المجتمع الإسلامي وحضارته وكل أمور المجتمع المسلم تقوم على هذا الأساس وترتبط به وتوفر الصور الإنسانية الحقة وهو مظهر فريد يستحق العناية، ولا يمكن أن يفهمه أو يتناول دراسته ويبحث فيه إلاّ من كان منصفا يفهم هذه المعاني ويؤمن بها وواجب المسلمين المتخصصين العناية بهذا الأمر وسيجدون في بطون الكتب الأحداث العملية المشرقة الوضاءة التي عاشها المجتمع المسلم وألفها وتعامل بها. إنّ الوقف وسائر القضايا الإسلامية العملية في المجتمع الإسلامي تتوفر وتزدهر وتثمر وتظهر في صورتها العملية التنفيذية التي يعيشها الناس مسلمين وغير مسلمين مقيمين ومارين في المجتمع المسلم وكل من يقصد ذلك المجتمع، يتم ذلك حين يقوم هذا المجتمع يحيا بشريعة الله ويتمسك بهذا الدين ويحيا للعقيدة الإسلامية حين يقوم هذا المجتمع بكل جوانبه يتبنى هذا الاتجاه عقيدة وشريعة ومنهجا تتوجه دولة القرآن تحميه وترعاه وتأخذ بتلك الوجهة وتحرص عليها يتربون عليه ويرضعونه

ويتمثلونه لا يبتغون عنه تحويلا ولا بأي جزئية منه تبديلا يفتدونه بكل نفيس وغال حين ذاك يدور الدولاب ويعود العطاء وتزدهر حضارة الإنسان الرباني. إنّ الإسلام لا يعمل في الفراغ بل يعمل في الحياة في مجتمع يؤمن به ويحرص عليه من الأعماق ويفتديه وحين ذاك ستعود للحياة حالتها الحقة ووجهها الناصع وازدهارها المعهود وعند ذاك ستظهر هذا الجانب يجري في نهر الحياة زلالا صافيا يستقي الناس منه ويرتوون. وبغير هذا المجتمع سيبقى حديث تاريخ وروايات كتب ومادة بحث. وما يجري اليوم من خطوات في هذا الجانب ضيقة محدودة يقوم بها المتدينون المحبون لله لكن ذلك عمل جزئي يتم ويكثر ويتسع ويكبر حين يقوم المجتمع المسلم. وللأسف فإنّ بلداننا الإسلامية تكاد تنهي ما تبقى من هذه الظاهرة. ويوم يكون المجتمع ستظهر الحياة هذه الظاهرة وأمثالها من جديد وتقدم منه المزيد. وإنّ دراسة هذا الأمر في الحضارة الإسلامية سيظهر من التنوع والكثرة الغامرة شيئا عجيبا يشير إلى لون ذلك البناء وطبيعته وتعلن للمسلمين عموما بحب الله ودعوته والتضحية من أجله في أعز الأشياء الدنيوية مما يملكون. إنّ بطون الكتب مليئة بالأمثال والشواهد والمشاهد الرائعة الخيرة الفاضلة وهي بحاجة إلى العناية دراسة وتوجيها وتنبيها لإحيائها والدعوة إليها وهذا هو الاتجاه الذي يجب أن تتبناه الدراسات الإسلامية في كل ميادينها تدعو إليه وتحافظ عليه وتسعى من أجله كيما يقوم المجتمع الإسلامي الذي يتولى هذا الأمر وتقوم دولة القرآن تحميه وتحفظه وترعاه فيعود للحياة ليس هذا الجانب بل كل جانب لأنّ هذه الأمور لا تعيش منقطعة إنما هي ثمرة ضمن ثمرات أخرى لحياة قائمة كلها على

أساس الإسلام لا انقطاع بينها ولا انفصام حين تقوم على الشريعة الغراء تُحيي بها الأنام وهذا أمر آخر لا بد من ملاحظته خلال الدراسة كمنهجية أصيلة في التناول بجانب غيرها من الأمور. والأمل أن تقوم دولة الإسلام ثمرة لدعوته على أثر قيام مجتمعه الذي يتناول بناء الحياة على أساس الإسلام دستوره القرآن ومنهجه الإسلام يبتغي رضا الله ويفتدي شريعته حبا فيه لا يرتضي غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نبيا ورسولا وقائدا وزعيما وأسوة حسنة. فالأمل أن يتم ذلك في القرن الخامس عشر الهجري إن شاء الله تعالى والبوادر تفصح لتشرق الأرض بنور الله المبين إن شاء الله تعالى آمين والحمد لله رب العالمين إنّه سميع مجيب.

الشغف العلمي في الحياة الإسلامية وأصالته

البناء الإسلامي للحياة الإنسانية والمجتمع فريد متميز في كل نواحيه، تفرد الإسلام في كل شيء. وكلما عاش الناس أقرب إلى هذا الدين وأقاموا حياتهم عليه ظهروا متميزين بهذا التفرد، قوة ورفعة وإنسانية، حتى غدت تلك الأمور طبيعة واضحة في المجتمع الإسلامي وحضارته وبناء الإنسان المسلم. وهذا لا يكون في غير الإسلام وذلك أمر طبيعي. ومن فضل الله على الإنسان عموما وعلى المسلمين أن هدى لإقامة المجتمع الإسلامي لقرون طويلة ليكون قدوة ينشدها الناس في حقائق مترادفة ووقائع متوافرة وأحداث متكررة، ما يدهش ويثير الإعجاب ويدعو إلى التأمل من كل أحد. وهذا ما جعل أعداء الإسلام يركزون على مهاجمة التاريخ الإسلامي وإثارة الشبهات حوله وإخفاء حقائقه. حتى لقد غدا عشق هذه المثل يتغنى بها المسلمون من كل صنف وكانت هذه المثل والمستويات شائقة، والاختلاف أو التفاوت فيها من حيث الأوجه لا من حيث النوع. كان من ذلك الشغف بالعلم الذي هو جزء من العقيدة الإسلامية وفريضة على هذه الأمة الفاضلة، تحولت الفرائض فيها حبا وشوقا ومطلبا، وهذه من الله نعمة أخرى. ولقد شاع هذا الشغف العلمي لدى المجتمع الإسلامي في كل دهوره وبلدانه، وكلما زاد العلم والمعرفة اضطره الشوق والشغف معه زيادة وتألقا. وسرى هذا الشغف على كل ما له صلة بالعلم ويخدمه من أدوات ووسائل وأمور، وكان من أبرز ذلك الكتاب الذي تعلق به العلماء أكثر من غيرهم وظهر شغفهم به. وقد أعانهم ذلك على نشر ما فيه من علم يتناقله

الناس خلال الأجيال يورثونه لمن بعدهم ويحفظه من الضياع. ولقد ظهر في المجتمع الإسلامي العلماء الأعلام على طول القرون في العالم الإسلامي الواسع من النساء والرجال في كثرة عجيبة ووفرة من الإنتاج فريد وكلهم بتلك المواصفات الخيرة التي تعبر عن جانب في طبيعة هذا الدين عقيدة وشريعة والإيمان به. والأخذ بتعاليمه ولولا ذلك ما حصلوا على لقب العلماء ولا كانوا من أهل العلم إذ ليس العلم في الإسلام للاختزان إنما للتمثل والظهور الحق في كل حال وتطبيقه والحرص عليه والعمل له في قدرة متوقرة متوثبة عالية. وعلى ذلك فهم ورّثوا هذا اللون من العلم للأمة ترى فيهم تمثله وأخذ أنفسهم به قبل النطق أو تعليم الآخرين له وتلك هي الأمانة المكلفون بها وهذا هو معنى البيان الوارد في القرآن الكريم وأخذ الله الميثاق من العلماء ليحملوه يبلغوه ويبينوه.

لقد بلغ شغف العلماء بالعلم والكتاب حدا عاليا وحرصوا على نشر ذلك بين الناس بالقول والعمل أمانة وصيانة، يبذلون له ما يملكون ويسعون هم به بين الناس لا يبتغون غير رضا الله تعالى. وهذا هو السمت الواضح لعلماء الأمة الإسلامية في تاريخها في كل ميدان الذين حملوا العلم الحق الذي يقيم الحياة ويطهرها من كل إثم وضلال وانحراف ليقيمها على المحجة البيضاء شريعة الله المنيرة. وكانوا يسعون في ذلك أشد من سعي الإنسان لمنافعه الخاصة، ذلك لأنهم ارتبطوا بالله تعالى وسعوا لرضاه وعملوا على نيل حبه والحظوة بقربه وهو لا يكون إلا بسلوك دربه سبحانه وتعالى. وتملك الأمة الإسلامية من الأمثلة والكثرة ما تعجز عنه الأمم مجتمعة، أما في النوعية فهم عن ذلك أعجز، وهذا هو بعض ثمار الأخذ بهذا الدين، ولا

يعـود للإنسـانيـة استـقـرارها وخيـرها إلاّ بذلك حـيث تفـوز بخيري الدنيا والآخرة. ودورة الزمان الآن تتجه لموجة من الفتح الجديد تأخذ أهل الأرض أجمعين تفيء الأمم والشعوب إلى ظل هذا الدين تحتمي به من هجير الحياة. وعندها ستعرف معنى الحياة ومعنى الإنسانية حيث تحقق الربانية منهجا وطريقا وبناءً تعشق الخير وتحبه وتسعى فيه طالبة رضا الله وفي سبيله وتستهين بكل شيء دونه. والبوادر في حاجة الإنسانية الشديدة واضحة رغم كبريائها وادعاء حضارتها وسبقها العلمي فهي بحاجة إلى هذا الطريق الجديد الأكيد الفريد، وكل يوم تحس بتفاهة ما لديها لتتجه إلى دين الله وتبحث عنه فتحمله لتعمر قلبها وتزين خلقها وتشيد أعمالها وتبني حضارتها وترفع راية الإسلام الرباني خفاقة عالية مكتوب علها " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". وواجب المسلمين اليوم قبل غيرهم العمل بهذا الدين والدعوة إليه بالسلوك والتطبيق، تكون رسالة في الحياة منجاة في الآخرة، نحملها ونحتضنها منادين بأنّ الموت في سبيل الله أسمى أمنية والبذل من أجله هو الغنى بذلا لا يعرف فقرا بل نحرص عليه، وإن الثقة فيما عند الله هو الغنى الذي جعل النفس في غنى عن كل شيء ورضا بما قسم الله وأراد. وهذا المسلم مكلف قبل غيره أن يتولى رسالة السعادة في الدارين يحملها إلى الناس ويجاهد من أجلها ليقرأها من حوله في سلوكه قبل استماعه إليها في منطوقه، وتلك هي الدعوة الحقة، وهكذا كان الفتح لدى المسلمين المجاهدين الأوائل، إنه فتح العقيدة إنه تفتح القلوب لدين الله لترتوي به وتنتعش وتزدهر تسير في الحياة، مثلما قيل عنهم ملائكة يمشون على الأرض، إذ كان خلقهم القرآن يسعون إلى هذا المثال ويرتجون التمثل به

وعليه يحرصون. فالإسلام وجنده هم المنقذون لأهل الأرض في كل زمان مهما أظهر الآخرون من غرور وتوهموا من سرور لا يختلف عن السراب في كثير بل هو منه أو يزيد. ولعل من حكمة الله تعالى أن يكون الحال منبئاً بذاته عن حاجته الكامنة في الذات وإن رفضه الناس وحاربوه مثلما جرى في بداية الدعوة الإسلامية، وهكذا طبيعة الكفر والضلال مهما دافعوا الحق فالفطرة بانتظاره لتلقاه عاشقة محبة. وإن امتلاك الحضارة الحديثة للوسائل العلمية المتقدمة زاد إظهار فقرها في الإنسانية، ليكون ذلك دليلا للإنسان عمليا على أن كل ذلك لا يوصل الإنسان إلى الخير والاستقامة بل قد يزيده ضلالا ليرى بنفسه وإن أنكر ولو إلى حين أو في كل الأحايين وأن الفطرة متعطشة إلى دين الله، وما عليه لا يملك لها ارتواء ولا يسد الحاجة الحقيقية أو يشبع الجوعة القائمة والعطشة القائمة لدى الإنسان كل ذلك الذي يملكه مظاهر لا تغني عن حقائق الإنسان وطبيعته وفطرته شيئا ولا بد من شريعة، هي شريعة الله بتشريعها وبارتباطها، والتوجه فيها حتمية ضرورية لا مفر منها، بل كل يوم وجديد وتحصيل يؤكد ذلك ويوضحه. وأن الذي يقوم ببيان ذلك وإيضاحه وتقديمه هم المسلمون، دعاة جنودا فاتحين في كل لون وميدان يبنون الناس ذلك اللون الفاضل من البناء ويوضحونه بالدليل العملي والمثال وبالشرح والبيان حتى يتبناه الناس على اختلافهم في سرعة الاستجابة ويبقى بذلك المسلم هو الإنسان المعطاء الذي يبذل كل شيء من أجل هذا الدين. وكل عمل أو مهنة أو حرفة إنما هي خادمة لهذا الدين يسعى فيه ولأجله ليقيم البناء عاليا رفيعا، ومن يتخلف عن هذا الموكب سيندم لأنه سائر لا يتوقف والشرف لمن التحق به وأخذ بأسبابه ولزم غرزه.

ونرجو الله أن يجعلنا من هؤلاء الذين يحملون هذا الدين ويضحون له ويبتغون بذلك وجه الله تعالى ويسهمون بتوفيق الله في هداية الإنسان، لتشرق الأرض بنور الله المبين وتحيا بشرعه الأمين وتنبت مخضرة بهذا الدين واتباع سيد المرسلين وبركة الخالق رب العالمين الله جل جلاله. اللهم آمين.

شغف العلماء الأندلسيين

بالكتب والعلم ونشرهما

عرف المجتمع الإسلامي ـ لطبيعة بنائه وحقيقة مقوماته وأصالة أسسه ـ بحبه للعلم وشَغَف أهله في ذلك وهو أمر عام، وعند العلماء أظهر. وكان هذا ثمرة لما غرسه الإسلام في نفوس مجتمعه الذي اعتبر العلم فريضة يسعى لها حريصا عليها طلبا لرضا الله. وهو نوع من الجهاد في سبيل الله يدخره عند الله أجرا يوم الدين ويحوز به رضاه وهي علامة خشيته والأخذ بشريعته واتباع دينه وهو دافع لا يمكن أن يتوفر في غير هذا الدين. وعلى ذلك فكانت هذه الظاهرة مثل غيرها متميزة في المجتمع الإسلامي قوة ووضاءة وازدهارا درجة ونوعا كمًّا وكيفا.

وحرص العلماء من النساء والرجال في كل فن وتخصص على بذل ما عندهم من تحصيل يسعون إليه بين الناس ويسعون إليهم ويظهرون به قدوة متمثلة حية متحركة يدعون إليها بسلوكهم قبل قولهم، وهذا هو طبيعة العلم في المجتمع الإسلامي وتلك سماته وبه تعرف مكانة العلماء وكانت تسميتهم وقيادتهم.

ولذلك وجدنا هذا الأمر عاما في كل العصور الإسلامية وبلدانها، وافرة في صفحات الحضارة الإسلامية المشرقة. وكان الأندلس خلال عصوره الطويلة واحدا من تلك البلدان الإسلامية المتحضرة حضارة حقيقية.

وكل ما أصاب الأمة الإسلامية كان منها بعوامل خارجية وكان هذا العامل الأكبر في ذهاب الأندلس، وأحيانا تصاب بعوامل داخلية حين

تضمر مثل هذه المعاني لكن على الدوام كانت تؤول إلى هذا الدين فتجد الخير والظل الأمين والعزة والبناء الرصين؟

والمرجو من المسلمين اليوم أن تنمو فيهم هذه المعاني لتعود إليهم مكانتهم في العلم والحياة يسعون إلى رضا الله وجنته وليقودوا ركب الحضارة الإنسانية وينقذوا الإنسان مما جنته يداه حين ضل الطريق وتنكب صراط الله المستقيم. فنحن الدعاة المسلمين، إن شاء الله تعالى - مسؤولون للقيام بهذا الواجب ونرجو الله أن يعيننا عليه مبتدئين من أنفسنا إن شاء الله داعين الآخرين بسلوكنا وأرجو الله أن يوفقنا في ذلك إنّه نعم المولى ونعم النصير آمين.

جمع الكتب الإسلامية

وحين الحديث عن الأعلام في الأندلس، في التصانيف المعنية بذلك، تتردّد دوما عبارات متوافرة تشير إلى الاهتمام بجمع الكتب والعناية بتدوينها وانتساخها والتأليف لها، بشكل شامل واسع وفير.

وكلّ هذه الشواهد على سبيل التمثيل، وإلاّ فهي متوافرة في كثرة كاثرة. ولذلك فإنّ هؤلاء العلماء، وهم يهتمون بجمع الكتب وتكوين المكتبات، كانوا من أصحاب المؤلفات الحسان والإنتاج الحفيل. والأمثلة تفيض بها الكتب وهي تشيد باقتنائهم الكتب والعناية بها وضبطها وتثني على اهتمامهم بالتأليف والإكثار منها. وفيما يذكر في هذا البحث تعبير بليغ عن أصالة هذه الصفة بأحسن أوضاعها ومقوماتها.

والأمثلة في ذلك حافلة غنية بإفصاحها عن هذه الميزة التي وصفت كلّ عالم بأنّه كان كثير الدواوين جمّاعة للكتب وذا همّة عالية في تدوينها وأنّ

له تآليف حسان[221]. وظاهرة اهتمام العلماء بالكتب جمعا وتدوينا وتأليفا وانتساخا، وكذلك دأبهم على الإقراء والتحديث (التدريس والتحاضر) وإقبالهم على نشر العلم وبثّه [222] تدلّ على النموّ في هذا الاتجاه والتجويد فيه باستمرار، مستزيدين دوما، وبنهم لا يشبع. والحرص في ذلك كلّه باد صريح، ثمرة لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لتبيّننّه للناس ولا تكتمونه﴾[223] ولبقية المعاني الإسلامية في هذا الاتجاه وفي غيره لكل مجال - العلم فيما يخص هذا الأمر مثل الأمور الأخرى - واتصافا بحديث الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم " منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال "[224] وأمثال ذلك مما ورد في حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم وظهر من سنته.

فكان نشر العلم أمانة ومسؤولية ترتبط بالعقيدة وتقوم على الأساس نفسه في الاستجابة لنداء الله والالتزام بأمره والوقوف عند شرعه. سواء كان بالبلاغ المباشر التعليم، أو غير المباشر الكتاب.

أساليب نشر العلم

وترد هنا مسألة لا بدّ من إثارة الانتباه إليها ذلك أنّ الأندلس بلغت حدا عاليا من العلم والمعرفة في رفعة المستوى وعمق الأصول وسعة الشمول بين

---

(221) انظر: أعلاه، كذلك: الصلة، 470، 473، 477، 483.

(222) انظر: أزهار الرياض، 3/ 63، 153. الصلة، 145.

(223) آل عمران، 187.

(224) سنن الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، 255هـ)، بعناية محمد أحمد دهمان (دمشق، 1349هـ)، 1/ 96.

النساء والرجال. فلا بدّ أن كانت لهم طريقة ناجحة في التعليم وأسلوب في التدريس ونشره. إنّها طريقة تستحقّ البحث والدراسة والتعريف، خاصة الأسلوب المباشر. والتعليم أو الأسلوب المباشر في التعليم كان عاما يهرع إليه العلماء والمتعلمون. ومكانة العالم يقوم جزء كبير منها على بذل العلم للناس وكان العلماء في إقبال شديد على نشر العلم حسبة ورغبة في حب الله وطاعة له، وكان ذلك يتم بحرص منه شديد.

وقد انفردت الإشارة إلى هذا الأمر، حين الحديث عن العلماء، خاصة أولئك الذين تفرغوا فيه وأنفقوا وقتهم وجهدهم له. وآخرون كانوا يمارسونه وسيرتهم تنبئ بذلك، وهذا يكاد يكون عاما.

فالحافظ أبو الوليد ابن الفرضي (403هـ)، صاحب المؤلفات الكثيرة الحسنة، كان معنيا بالعلم" قائما به نافذا فيه "[225]. وأبو عبد الله محمد ابن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأسدي (536هـ) قاضي الجماعة بقرطبة فقد "أقبل على التدريس، وإسماع الحديث"[226]. وأبو زكرياء يحيي بن هلال ابن زكرياء (367هـ) من أهل قرطبة "كان مورودا في السماع منه، سمحا ينشر علمه "[227].

فأبو جعفر احمد بن الوليد بن أبي جمرة (444هـ) مرسي " كان من بيت علم وجلالة ودين معرضا عن الدنيا كثير العمل تصدّق بجلّ ماله، إلاّ

(225) الصلة، 252.

(226) الصلة، 586.

(227) تاريخ علماء الأندلس، 2/191.

ما يقيم أوده، وله في الفقه فتاوى حفظت عنه، وتزهّد ورحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج. ولما قفل إلى بلده أقبل على نشر العلم وبثّه وتدريسه، إلى أن توفي به "[228].

والقاضي أبو الوليد الباجي (474هـ)" أحد أئمّة المسلمين "[229] وصاحب المصنفات الكثيرة الشهيرة[230] الذي عني بالتأليف والتدريس[231] بل إنّه حين رحل إلى الشرق الإسلامي في 426هـ لثلاث عشرة سنة[232]، قدم خلالها بغداد " وأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث"[233]. مثلما فعل الحافظ أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي (463هـ) حين خرج إلى الشام " حدّث بدمشق بعامّة كتبه "[234].

وأحمد بن مضاء " لحق بجبل تين ملك أحد الجبال الشامخة الغربية لمراكش، فاستقرّ به مدرسا العلم ناشرا ما لديه من معارف "(245).

وأبو محمد قاسم بن الحاج محمد بن مبارك الأموي الزّقّاق (595هـ) "أقرأ طويلا بإشبيلية وبفاس وبسلا وبغيرها "[236].

---

(228) الذيل والتكملة، 1/ 555، الديباج المذهب، 58.

(229) وفيات الأعيان، 2/409.

(230) نفح الطيب، 2/67.

(231) الذخيرة، القسم الثاني (مخطوطة المتحف العراقي)، ص 63.

(232) نفح، 2/71.

(233) نفح، 2/ 71؟

(234) الوافي بالوفيات، الصفدي، 7/ 191.

(235) الذيل والتكملة، 1/218.

(236) الذيل والتكملة، 5/ 571.

والإمام الحافظ الحميدي الأندلسي (بغداد، 488هـ) صاحب المصنفات الكثيرة وجذوة المقتبس، كان شديد الحرص" على نشر العلم وبثّه في أهله " (237).

والإمام الحافظ المستبحر القاضي أبو بكر ابن العربي (543هـ) كان ممّن" أقبل على نشر العلم وبثّه "(238).

الإخلاص في نشر العلم

وكلّ ذلك كان يتمّ مع الحرص في إخلاص والرغبة في استمرار والفرح في السعي إلى الناس. وذلك عام مألوف، كالقاسم بن عبد الرحمن بن القاسم بن دحمان بن فتوح بن نصر الأنصاري (بلنسية 485ـ مالقة 575) الذي" كان كبير الأساتيذ بمالقة وصدر المقرئين بها، خيّرا فاضلا متواضعا، طال عمره وعظم انتفاع الناس به وروى عنه الأصاغر كما روى عنه الأكابر، ونفع الله بالأخذ عنه عالما كبيرا، وكان ناصحا في تعليمه حريصا على الإفادة ضابطا ثقة فيما يرويه، متين الدين تامّ الفضل "(239).

ومن السهل ملاحظة أنّ هذا الإقبال على نشر العلم وإشاعته تطوّعا واحتسابا ـ بأجر أو بدونه ـ كان يقوم به علماء أعلام عرفوا بفضلهم وورعهم ومكانتهم من الناس ومن السلطان، فكانوا قدوة في علمهم وخلقهم والتزامهم واستقامتهم وهروعهم إلى الناس لنفعهم. وهذا واضح المدلول بأنّ

---

(237) نفح، 2/ 113.

(238) الصلة، 591.

(239) الذيل والتكملة، 5/ 546.

هذه الأمور كانت نابعة من العقيدة ومدفوعة بحملها ومركونة على أسسها الفاضلة التي تكون الدوافع الطوعية والرغائب التي هي أقوى وأفضل وأصدق وأعمق وأمكن وأدوم من أيّة دوافع غيرها ولا تقوم بدونها.

رحلات العلم وبذله

وكما كان استمرار الإنتاج في التأليف دون توقّف الصعود﴿ وفوق كلّ ذي علم عليم ﴾[240] كذلك طلب العلم؛ فلقد كان البذل له كريما والسعي فيه حثيثا والاستزادة مستمرّة والنموّ مضطردا والرحلة إليه دائمة " ما زال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنّه قد علم فقد جهل "[241].

وكلّ ذلك قويّ واضح في المؤلفات، ذات الاهتمام بهذا الجانب. فيذكر ابن الفرضي في تاريخه لعلماء الأندلس عن داود بن عيسى بن جبويه الكلاعي الأحول من أهل قرطبة" رحل إلى المشرق فاجتمع مع بقيّ بن مخلد، وكان بقي لا مال له، وكان داود واسع المال، فسأله بقي: أن يتيح من ماله ما يشتري به الكتب، ويجمع به الدواوين، ويكون سماعهما واحدا. وقال له أرجو أن ينفعك الله بذلك. فأجابه داود إلى ذلك، فكان سبب استكثار بقي من الرواية والجمع. ولما انصرف إلى الأندلس كتب بقي الكتب لنفسه "[242].

والحافظ أبو محمد عطية بن سعيد بن عبد الله الأندلسي (407هـ)

---

(240) سورة يوسف، 76.

(241) حديث شريف.

(242) تاريخ علماء الأندلس، 1/143.

"طاف بلاد المشرق سياحة وانتظمها سماعا، وبلغ إلى ما وراء النهر ثمّ عاد إلى نيسابور وأقام بها مدّة "(243). وذهب بعد ذلك إلى مكة المكرمة" وتوفي بها بعد أن أقرأ وحدّث أعواما " (244) و" كان ثقة كثير الكتب صحيح السماع"(245). و" قد جمع كتبا حملها على بخاتي كثيرة "(246). وكان ابن الضابط أبو عمرو عثمان بن أبي بكر الصدفي السّفاقسي الأصل "كانت له رواية واسعة ومعه كتب كثيرة من روايته بالعراق والشام والحجاز ومصر. وكانت عنده غرائب. تجوّل بالأندلس منذ عامين، ثمّ انصرف إلى القيروان، فوجّهه الصّنهاجي صاحب القيروان رسولا إلى القسطنطينية ثمّ انصرف عنها أو مات في طريقها، إما واردا أو صادرا رحمه الله "(247).

انتقال الكتب

وكان جلب الكتب من الأقطار الأخرى إلى الأندلس معروفا مشهورا، خاصة بالقرون المبكرة، وذلك يمثّل أحد روافد الثقافة الأندلسية. لقد شمل ذلك الميادين كافّة وكان من يأتي إلى الأندلس من أهل المشرق الإسلامي يجلب معه الكتب كما فعل أبو علي القالي. أما الأندلسيون فكان ذلك هدفا يعملون لتحقيقه ويجتهدون لإنجازه.

فهذا أبو القاسم سلمة بن سعيد بن سلمة بن حفص بن برد

---

(243) جذوة المقتبس، 319. كذلك الصلة، 447.

(244) الصلة، 449.

(245) الصلة، 449.

(246) جذوة المقتبس، 320. كذلك: الصلة، 448. البخاتي: الإبل الخراسانية.

(247) الصلة، 409.

الأنصاري(407هـ)" رحل إلى المشرق وحج وأقام بالمشرق ثلاثا وعشرين سنة، وأدّب في بعض أحياء العرب. . . وكان رجلا فاضلا ثقة فيما رواه، راوية للعلم. حدّث وسمع الناس منه كثيرا "[248]. وقد نفع في رحلته وانتفع علما وفضلا، فساق" من المشرق ثمانية عشر حملا مشدودة من كتب. وسافر من أستجة إلى المشرق واتخذ مصر مؤئلا، واضطرب في المشرق سنين كثير جدا يجمع في الآفاق كتب العلم، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح، نهض به إلى مصر، ثمّ انزعج بالجميع إلى الأندلس وكانت في كلّ فنّ من العلم ولم يتمّ له ذلك إلاّ بمال كثير حمله إلى المشرق "[249].

اصطحاب الكتاب

وربما كان أهمّ ما يملك العالم مكتبة يزيّن بها داره وهي أكبر ما لديه في الحلّ والتّرحال. وقد يكون زاهدا في كلّ شيء متقلّلا منه غير الكتب، وعاء العلم. وحين يسافر بعضهم يصحب معه كتبه كلّها أو بعضها. وهي أهمّ ما يعنى به. كما فعل ابن الصقر الأنصاري العالم المؤلف جمّاعة الكتب الذي تردّد بين الأندلس والشمال الإفريقي، خاصة مراكش. وحين عاد إلى غرناطة" استصحب إليها من مراكش خمسة أحمال" [250]أو كان ذلك حين توجّه إلى مراكش[251]، أو كان كليهما، ثمّ زاد عليها الكثير. وهذا أمر عام

(248) الصلة، 224.

(249) الصلة، 225.

(250) الذيل والتكملة، 1 / 229.

(251) الديباج المذهب، 49.

في بلدان العالم الإسلامي يصل إلى حدّ الطرافة أحيانا. كالذي جرى للإمام أبي حامد الغزالي (505هـ) [252]حين سافر من بغداد فـ" أخذ العيارون ما معه، رجاهم أن يردّوا عليه كتبه ففعلوا "[253].

ولعلّ حيثما يحلّ أحدهم تكون له مكتبة، وقد يتركها في مكانها حين يرحل، للانتفاع بها. كما فعل الحافظ أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد من قرطبة (371ـ دانية 444هـ= 1052م). رحل الداني طلبا للعلم من الأندلس إلى عدد من بلدان الشرق الإسلامي وترك في بعض منها كتبا، إذ" خلّف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس "[254].

ويذكر المقّري عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي (655 هـ) أنّه" كانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث إنّه لا يستصحب كتبا في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه "[255].

وكانت هذه الظاهرة عامة عند علماء المسلمين في أقطارهم المختلفة. فذكر السخاوي حين الحديث عن مجد الدين الفيروزآبادي (817 هـ)

---

(252) وفيات الأعيان، 4/ 218.

(253) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي(771هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، (القاهرة، 1388هـ/1968م)، 6/195.

(254) نفح الطيب، 2/135.

(255) نفح الطيب، 2/242.

صاحب المؤلفات الكثيرة والقاموس المحيط بأنّه" اقتنى كتبا كثيرة، حتى نقل عنه أنّه قال: اشتريت بخمسين ألف مثقال كتبا. وكان لا يسافر إلاّ وفي صحبته منها أحمال، ويخرجها في كل منزل وينظر فيها. وصنف كتبا كثيرة"(256).

الغرام بالكتاب

ويأبى أحدهم تعطيل الإفادة من الكتب فينفع بها نفسه وغيره، ويعمل على الانتفاع بها في كلّ الظروف. فحين ذهب العالم الأندلسي الأديب الحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي (529هـ) إلى مصر في 489هـ أيام خلافة المستعلي الفاطمي بن المستنصر حدث له ما حمل الوزير الأفضل شاهنشاه على سجنه. لكن الطريف في الأمر أنّه سجن لسنوات في مكتبة غنية بالمؤلفات، يهيّئ فيها الجوّ المناسب للدرس والإنتاج، ولا تخلو من لقاء بالمرتادين، وربّ ضارة نافعة. وفي ذلك يقول ابن سعيد المغربي: " فسجن في القاهرة في خزانة البنود، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب، فأقام بها نحو عشرين سنة، فخرج منها وقد برع في علوم كثيرة من حديثه وقديمه. وصنّف كتاب الحديقة، على منزع كتاب اليتيمة في فضلاء عصره، وصنّف الرسالة المصرية، وصنّف في الطب والتنجيم والألحان، وعنه أخذ أهل إفريقية الألحان التي هي الآن بأيديهم "(257). وذكر ابن خلّكان كتبا أخرى ألّفها أبو الصلت في سجنه، منها: رسالة" العمل بالإسطرلاب"، وكتاب" الوجيز " في علم الهيئة، وكتاب"

(256) الضوء اللامع . ازهار الرياض، 3/42.

(257) المغرب في حلى المغرب، 1/262.

الأدوية المفردة " وغيرها[258]. فكانت أعواما ذات حصيلة كبيرة من العلم والتأليف إذ" خرج في فنون العلم إماما، وأمتن علومه الفلسفة والطبّ والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته "[259].

فهل نجد لهذه الطرافة أمثلة الآن، وهل يحلم علماؤنا أن يحظوا بها يوما ما؟

الحياة العلمية الحقة

إن استعراض الأمثلة السابقة وما يجاريها وغيرها يبيّن حقائق الحياة العلمية في المجتمع الإسلامي ودقة أصالتها وبعد أغوارها ونقاوة مقاصدها وشمول آفاقها وصفاء مساعيها لإقامة العلم الخير النافع وإشاعته بين الناس بحرص أكيد وهمة لا تعرف التوقف والفتور متجهة إلى الله عاملة على نشر دينه متمثلة السلوك الإسلامي الرفيع واقفة المواقف الحقة متحملة في ذلك كل بذل وتضحية وفداء وهذا بعض ثمار العقيدة الإسلامية والأخذ بشريعتها حية يتمثلها الإنسان وتظهر في مجتمع وترفع رايته دولة قامت وأعزت الإنسان بعد نصر الله له. والأمل أن يشهد القرن التالي هذا التحرك ليقيم المجتمع الفاضل والدولة الكريمة تحمل راية الإنسانية الكريمة الفاضلة

---

(258) وفيات الأعيان، 1/ 247. انظر كذلك: نفح الطيب، 1/ 496، 2/ 105. التكملة، ابن الأبار، 1/ 203. المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1957، 3ـ 4. خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، القسم الرابع، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، 1964، 1/ 223. عصر المرابطين والموحدين، عنان، 1/ 472.

(259) نفح الطيب، 2/ 105ـ106.

وتحقق الربانية في الأرض ليستحق الإنسان ليكون خليفة الله فيها يعمرها ويؤدي حق الألوهية والعبودية له سبحانه وتعالى، له الفضل والمنه ومنة القوة والعزة والنصر وله الثناء الحسن: ﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات :56].

العناية بالكتاب والمكتبات في الأندلس

أوعية العلم في الأندلس ومستلزماته

تعدّدت في العالم الإسلامي - غربه وشرقه - مراكز الإشعاع الثقافي في مختلف ميادينه[260]. وأغنت قريحة المسلمين عالمهم بالمؤلفات، فكان إنتاجهم - زيادة على وفرته - يمتاز بالأصالة والدقّة. فطفح بها العالم الإسلامي[261]. وفي الأندلس - وارث حضارته - طما منها بحر زاخر.

لقد كثرت المكتبات في الأندلس، ووجدت فيها الخاصة والعامة بغيتها ولقد قُدِّر عدد المكتبات العامة في الأندلس أيام الخلافة نحو سبعين مكتبة[262]، ولعلّ هذا غير مكتبات المساجد والمجالس وغيرها. ويرد احتمال كون بعض هذه المكتبات العامة محدودة لعموميتها، تهتمّ بالبحث أولا وتفتح أبوابها للباحثين والعلماء، وهو أسلوب مهمّ ومفيد، في حين كانت الأخرى شاملة العمومية.

---

(260) راجع: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، محمد جمال الدين سرور، القاهرة، 1967، 201 وبعدها.

(261) يذكر ابن كثير في حوادث سنة 631هـ (البداية والنهاية، 13/ 140)، حين الحديث عن المدرسة المستنصرية في بغداد "وقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها". انظر: نفح الطيب، 2/ 543؟

(262) دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 509. مجالي الإسلام، حيدر بامّات، 113. قارن: مجلة معهد المخطوطات العربية، بحث ربيرا، 5/ 1/ 77. الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، 1/ 260. كذلك: فهرسة ابن خير، المقدمة (ز). ولكن لم أعثر على النصّ القديم يشير إلى عدد المكتبات العامة في الأندلس.

ولما كانت المساجد بمثابة دور للعلم فمن الطبيعي أن تكون مكتباتها يسيرة الاستعمال للطلبة في دراساتهم[263]، باعتبارها مكتبات عامة. ولا يبدو أنّ مكتبات المساجد وأمثالها تنطوي في عداد هذه المكتبات السبعين.

ومهما يكن من اعتبارنا لهذا الوضع فإنّ بيوت الأندلسيين، حتى غير العلماء، كانت تزيّنها أجمل ما تزيّنها مكتبة، قلّت محتوياتها أو كثرت.

وطبعا فقد كثرت أحياء الكتب وحوانيتها في قرطبة وغيرها من الأقاليم والمدن الأندلسية، صغيرتها والكبيرة، وربما قراها وأريافها ـ حسب اتساعها وحاجتها ومطلوبها ـ وغدت أسواقها حافلة بالحركة العلمية في هذه التجارة النافقة والمهنة الرابحة والمبرة الرائقة[264].

وكثرت خزائن الكتب ومحلاتها وما يتصل بها عناية ورعاية ودراية، ردت الخير وحملت النور وأقامت إنسانية الإنسان بالعلم الإسلامي الكريم النافع طلبا لرضا الله وسلوك درب الإسلام وتعمير الحياة بشرعه متجهة إلى الله بهذه العقيدة الفضلى قائمة على الإيمان بالله، زاهية مجتمعاتها بشرعه، منتشية بخدمة هذا الدين، حاملة لواء الخير في كل ميدان، قائماً على العلم ومباركا باليقين ترجو رحمة الله تعالى رب العالمين وتبث هديه في أرجاء الحياة ليعم نوره كل مكان ويشمل الأرجاء نور هذا الإيمان فتحقق بذلك إنسانية الإنسان التي لا تحيا إلاّ بهذا الدين ولا تجد نفسها إلا في ظله، ولا درب غير دربه للأخذ في الطريق المنير، فشرع الله خير في الدارين. ويقوم هذا على إنارة البصر والبصيرة بالعلم والمعرفة الحقة الأمينة الخيرة

---

(263) راجع: مجلة معهد المخطوطات العربية، 5/1/ 77.

(264) دولة الإسلام في الأندلس، 2/506. كذلك: تاريخ العرب، حتى، 2/ 626.

النافعة، العلم النابع من الشرع والقائم عليه والداعي إليه والمتمسك به، نضوجا وإنسانية وسلوكا يراها الناس ضافية على صاحبها يتوشح به مجتمعها فيجتذب الناظرين ويرتفع بأهله إلى مثابة الدعاة الخيرين قيادة لأهله ولبني الإنسان اجمعين، قيادة الحياة التقية والحضارة النقية والإنسانية الكريمة السنية.

فقام المجتمع الإسلامي على هذا اللون من العلم وكان مدى الاهتمام به واسعا عريضا في كل اتجاه، خيرا عميقا أصيلا في أعماقه وأغواره، بعيد القوة يؤتي ثماره في كل حين. وعلى هذا الأساس كان اهتمام المسلمين بالعلم ووسائله ومنها الكتاب، حوته مكتباتهم وتزينت به مجالسهم وتعمرت بمحتوياته الخيرة أنديتهم، فكثرت المكتبات على كل المستويات وأصبحت أمرا وقضية أساسية لا يكاد يستغني عنها أحد، يسعون له وينفقون من أجله ويسفرون لاقتنائه.

فاقيمت مكتبات غنية في العالم الإسلامي كافّة، وفي الأندلس من ذلك كثير. ولقد بلغت محتويات تلك المكتبات ما يعتبر عظيما ومتقدما في مثل هذا الزمان فكيف بذاك، يضرب بأوضاعها ومحتوياتها وخدماتها المثال في عالم اليوم وبعض سماتها تفتقر إليه المكتبات الحالية العالمية من العناية بطالب الكتاب عالما وباحثا ودارسا ورعايته وإكرامه والإنفاق عليه وترغيبه فيه والبر به والبذل له بمحبة وتقوى وعناية نابعة من الاتجاه نفسه في حب العلم وإقامة صرحه عليه وتثبيت صبغته الإلهية وتوسيع دائرة النفع وتمسها مع العقيدة الربانية ونشر الفضيلة وإنعاش الخير وإشاعة المعاني الإنسانية وتوفير المثال والقدوة التقية في حياة المسلم فرحا بها وحرصا عليها

تقربا إلى الله وخدمة لشرعه وفرحا بأداء الواجب طالبا رضا الله تعالى خيرا وبرا وبركة ونعمة، طاعة ومحبة في طريق الله المنير دون سؤال أو انتظار عن مكافأة أو جزاء أو غيره لكن الجزاء عند الله تعالى ورضوان منه أكبر بفضل الله ومنته ورحمته وبره ومغفرته إن شاء الله تعالى.

فكانت المكتبات الكثيرة وخزائن الكتب الوفيرة متعددة ومنتشرة في كل ركن تبث ما فيها علما نافعا وسلوكا كريما يقتفي آثار الصالحين ويدعو إلى التمسك بهدي الله رب العالمين ونشر دينه القويم وإقامة المجتمع - كل مجتمع يدخله هذا النور - على مقوماته لإقامة حضارته الفاضلة، وكانت المجتمعات الإسلامية تقوم بذلك وتعود إليه وتحرص عليه.

فكانت العناية بالكتاب على هذا الأساس عناية بالعلم، نشرا لدين الله وبحثا عن رضاه حبا به، فكانت عناية المسلمين وعلمائهم بالكتاب كبيرة وفيرة.

.العناية بالكتاب وخزائنه

كلّ هذا كان يتمّ في الأندلس رغم عدم ما توفّر لدينا اليوم من وسائل النشر والطباعة الحالية وسهولة الاتصال والانتقال و الخدمات الأخرى كافّة المتعلّقة بالكتابة والإنارة وغيرها. ومع ذلك فكان السمت العلمي والنتاج الفكري سريع الوصول من بلد إلى آخر في طول العالم الإسلامي وآفاقه الواسعة الرائعة، والكتاب ينتقل بسرعة واهتمام، فيتمّ تداول المؤلفات.

وكانت الرحلة من أجل العلم تتمّ للأخذ عمّن ظهر علمه وثبت له صونه والتزامه بمقتضياته مثالا متحركا به في الحياة، يرحل إليه الناس من

كل صوب يتسابقون في ذلك ويتنافسون ويفاخرون، وكما نرحل اليوم إلى الجامعات المشهورة للكسب العلمي، مع الاختلاف في الدافع والمدى والهدف. وكم من علماء الأندلس وصفت حالهم بأنّ " الرحلة كانت إليهم "[265].

ذكر ابن بشكوال(578هـ) في صلته ـ حين الحديث عن أبي إسحاق بن شنظير الأموي (352ـ 402هـ) وأبي جعفر ابن ميمون (353ـ 400هـ) ـ بأنّه قد" رحل الناس إليهما من الآفاق "[266]. ولقد بلغ مستوى التعليم في العالم الإسلامي وفي الأندلس مكانة عالية مرموقة مشهورة تجاوزت إمكانيات ذلك العصر ودوافعه بأبعاد بعيدة ومسافات واسعة في عالم ذلك اليوم وهي حتى الآن ما تزال مرموقة رفيعة ليس فقط في أهدافها ومبتغاها ومقوماتها بل بمستواها وشمولها واتساعها، ما يجعل مستواها ذاك يقصر عنه العصر الحالي في شيوع المعرفة وعمومها وعمقها فضلا على أصالتها وأهدافها وتوجهها إلى الله رب العالمين وهو له ثمرة علما كريما خيرا نافعا ينشر البر ويصونه ويرعاه ويعمل على إشاعة الهداية وتثبيت التقوى وإنارة الطريق إلى الله رب العالمين. وبذلك كان المستوى رفيعا وعجيبا حتى هذا اليوم، يكمن سره في شرع الله وبره في اتباع هداه، فكيف لو كانت للمسلمين مثل تلك الوسائل التي نأمل لحياتهم الحالية أن تعود إلى ذاك

---

(265) راجع مثلا: الصلة، 330 (704) ، 364 (776). تاريخ علماء الأندلس، 1/ 246 (753)، 1/ 366 (1070) ، 2/ 21 (1149). الذيل والتكملة، 4/ 85 (203) نفح الطيب، 5/ 422.

(266) الصلة، 21 (37)، 90 (198) .

الطريق مبتنية عليها في كل اتجاه لتري الإنسانية ما لا يمكن أن يشبهوه أو تسمع به أو ترى مثله في هذه الحياة والأبهة ... والأمل أن تقوم دولة الإسلام ومجتمعه غير بعيد وما ذلك على الله بعزيز وهو الذي جلت قدرته قد وعد به، اللهم أرنا دعوتك متمثلة في الحياة وانصر جندك يقيمون دولة القرآن بعونك ولطفك.

مستوى التعليم بالأندلس

إذا كان شعب - كأهل الأندلس - نساؤه ورجاله كلّهم يقرأ ويهتمّ بالعلم، يتذوّقه ويستمتع بقراءته ومدارسته ويستوعب معانيه حافظا له محافظا عليه، وفيه الآلاف من العلماء والمتخصصين في كلّ ميدان يكتبون ويؤلفون بوفرة غزيرة وأصالة باهرة وتمكّن نادر وفريد، فإنّنا نتوقّع سيلا من الإنتاج غامرا وجارفا واهتماما بالعلم والعلماء وارفا، ووسيلة ذلك الكتاب ضمن وسائل أخرى معهودة معروفة في الحياة العلمية والاجتماعية الإسلامية في الأندلس وغيرها.

فكانت الأندلس قبلة للعلماء والمتعلّمين على السواء، ليس من العالم الإسلامي فقط ولكن من خارجه أيضا. وغدا العلم والكتاب مصدر فخر وميدان سباق، به ترتفع مكانة الإنسان ويعرف موضعه.

وكثيرا ما اعتزّ وافتخر أهل الأندلس بنتاجهم الفكري واهتمامهم به. ولابن حزم القرطبي(456هـ) والشّقندي (629هـ) وابن سعيد الأندلسي(658هـ) وغيرهم رسائل معروفة في ذلك[267].

---

(267) انظر: نفح الطيب، 3/ 156 - 222.

وأصبحت الكتب في الأندلس موردا رائقا وسوقها نافقا والبذل فيها جودا وإن كثر والسفر لأجلها نزهة والسهر في تدبيجها متعة. وكان ذلك عاما بين النساء والرجال وعموم الناس وخاصّتهم، حكاما ومحكومين علماء ومتعلّمين. منهم المكثر والمقلّ الذي يسير مع من أنشد:[268]

يكفي من الحلي ما قد حفّ بالعنق

وغدت للعلم في الأندلس المكانة العالية ولأهله التقديم ولمجالسه التقدير. وكان للكتاب عند هؤلاء جميعا مأوى كريم ومنتدى منير. فكان الاعتزاز بالكتاب عاليا، حتى روي أنّ الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري (487هـ= 1094م) كان" جميل الكتب مهتمّا بها، كان يمسكها في سباني الشّرب وغيرها إكراما لها وصيانة "[269]. ويقول أبو عبد الله محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري (بعد 450هـ) في بيان مكانة الكتاب:[270]

يا مستعير كتابي إنّه علق   بمهجتي وكذاك الكتب بالمهج
فأنت في سعة إن كنت تنسخه   وأنت من حبسه في ضيّق الحرج

بل أصبح جمع الكتب والحصول عليها ميدانا للمنافسة ليس فقط للدراية والرواية، بل وأيضا لإشباع جماح الهواية. فيروي لنا المقّري في نفح الطيب، نقلا عن ابن سعيد: " أنّ الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة

---

(268) نفح الطيب، 3/ 225.

(269) الصلة، 287. الحلة السيراء، 2/185. " وسباني الشرب: المناديل الكبيرة التي كانوا يستعملونها في اثناء الطعام، وكانت تتخذ من رفيع القطن أو الكتان وهي أغلى السباني". مفردها: سبنيّة.

(270) جذوة المقتبس، 87 (132). الصلة، 539 (1183).

يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلاّ لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به"[271].

وينقل لنا المقّري كذلك في نفحه عن الحضرمي قصّة طريفة في هذا الباب فيقول: " أقمت مرّة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدّة أترقّب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخطّ جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه، فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنّي أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير "[272].

ولقد اشتهرت مدن أندلسية أكثر من غيرها بالعناية بالكتب والمكتبات ومنها قرطبة: لقد كثرت المكتبات في الأندلس في مدنها المختلفة لا سيما الكبيرة منها ولا سيما في قرطبة التي أصبحت مركزا للتوجيه تجاوز حدود الأندلس واتسعت مكتباتها ومنابر العلم فيها التي اتخذت من المساجد

---

(271) نفح الطيب، 1/ 462- 463.

(272) نفح الطيب، 1/ 463.

موطنا تأوي إليه وتتنفس فيه صحة ونموا وسمتا تقيا. عمت هذه المكتبات جنباتها واشتهرت أسواق كتبها ووراقيها ورقاقيها وأصبحت مقصد المهتمين بهذه البضاعة.

وحول مسجد قرطبة الجامع الكبير كانت الكثير من الأسواق ومنها سوق الكتب ولصلته بالمسجد والحركة العلمية فيه تنطلق منه وتضفي هذا الاتجاه والاهتمام عميق الجذور قوي الأثر حيوي الحركة. وكان مسجدها الجامع على شاطئ واديها يموج بالعلماء والمتعلمين. ولعل توطين العلم في المسجد له مدلول العموم ومعنى الدعوة إليه والصدق والقوة والأمانة والالتزام والتوجه إلى الله كما هي وجهة العبادة في ذلك المسجد وغيره من مساجد العالم الإسلامي التي كانت مركز الحياة ومركز المدينة ومركز التحرك والتوجه والنشاط في كل مدينة مسلمة.

فغدت قرطبة مدينة العلم شمل أفياءها وأحياءها وبناءها وكانت مرتعا خصبا لكل من قصدها من الطلبة والعلماء من شرق وغرب، وما أكثر ما صدى طلاب العلم رائدي راغبي لقاء علمائها حتى عم ذلك في أماكن ومقاعد ومواطن أخرى في غير المساجد ... منتديات ودكاكين وبساتين تعتني بذلك عناية شديدة. وكان الموجه هو المسجد يشحن الحياة بالخير ويمدها بالفضل وينشطها بالتقوى على أساس من العلم والمعرفة واليقين، فينطلقون بكل ذلك إلى الحياة بمعاني الإسلام الفاضلة يعمرون الأرض ويحرصون على بث الهدى وتقديم العلم لكل أحد، وهكذا العلم لا سيما علماؤهم وهو واجبهم في تعليم الناس علما ملتزما ظاهرا في سلوكهم ومواقفهم وأحوالهم كافة، ولقد صور ذلك العديد من الكتاب.

وكان يقوم بين المدن الأندلسية أحيانا تفاخر كبير بالعلم والكتب وبذلك امتازت قرطبة وعمت بضاعتها وكثر إنتاجها، حيث: " يباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب"[273]. " وبها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنّفت التصنيفات الفائقة "[274]. " وهي أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيّن والرياسة "[275].

ويروي لنا المقّري في نفحه - نقلا عن أبي الفضل التيفاشي - مناظرة جرت بين أبي الوليد ابن رشد القرطبي الحفيد الفيلسوف(595هـ= 1198م) وبين أبي بكر بن زهر الإشبيلي (595هـ) الطبيب في المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية. فقال له ابن رشد: " (ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية)، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتبا"[276].

وبذلك أشاد الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن صارة البكري الشنتريني (517هـ) بقرطبة:[277]

الحمد لله قد وافيت قرطبة دار العلوم وكرسيّ السلاطين

وكذا فعل الحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية المحاربي (481

---

(273) نفح الطيب، 1/ 461.

(274) نفح الطيب، 1/ 461.

(275) نفح الطيب، 1/462

(276) نفح الطيب، 1/155، 463.

(277) نفح الطيب، 3/216.

ـ لورقة، 546هـ) صاحب التفسير الشهير:[278]

بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهنّ قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها

واتخذ الاهتمام بالكتاب ـ إناء العلم، حفظا ونقلا وزادا ـ صورا متعددة تشير إلى الولع والاهتمام وامتلاء الحياة بذلك حتى كان منها التورية بأسماء الكتب في مكالمات ومكاتبات وأحاديث وفي الشعر والنثر.

التورية بالكتب

ومن لطائف الأدلّة على هذا الاهتمام والولع بالكتب ومعرفتها وسعة الاطلاع عليها والألفة لها، التورية بأسماء الكتب في الشعر والنثر.

ويمثّل هذا العمل الأدبي شكلا من البراعة، لكنّها طريقة شاقة في التعبير وفيها تكلّف. أم هو أسلوب لإظهار القدرة مع التمكن أو بعد العجز عن الجريان في طريقها الواضح أو إظهار للقدرة بكلّ الوسائل؟

إلاّ أنّها لم تستعمل كأسلوب في الكتابة بل إنّ فيها نوعا من إظهار المقدرة مارسها البعض في مناسبات. وهي لا تخلو من لطف ودعابة تظهر طول الممارسة للكتب وحضور لها وإلمام بها مع اقتدار على حسن الصياغة وتمكّن في البلاغة لعلّها نوع من الترف الأدبي.

وقد استعمل هذا الأسلوب، بشكل محدود، عند المتأخرين من أدباء الأندلس. ولم يكن إنتاج هؤلاء ولا عصرهم هابطا أو متأخرا في مستواه الأدبي وإنتاجه الفكري، بل كان فيه ازدهار.

---

(278) نفح الطيب، 1/615.

فمن الشعر في ذلك قول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي:[279]

من اغتدى موطّا أكنافه | صحّ له التمهيد في أحواله
وقابل استذكاره بالمنتقى | من رأيه المختار من أعماله
وأضحت المسالك الحسنى له | تدني تقصّيا قصى آماله
وسار من مشارق الأنوار في | أدنى المدارك إلى إكماله

والرئيس أبو محمد (675ـ 749هـ) هو كاتب السلطان المريني أبي الحسن وصاحب علامته، أصله من سبتة وسكن مدّة في غرناطة العاصمة، وهو أستاذ ابن خلدون. " وكانت بضاعته في الحديث وافرة، وغلّته في التقييد والحفظ كاملة "[280].

ومن الذين لهم إنتاج شعري ونثري في هذا الفنّ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن جزي الغرناطي (721ـ فاس، 757هـ)[281]. وكان من كتّاب مملكة غرناطة ثمّ الدولة المرينية. وعليه أملى ابن بطّوطة (704ـ 779هـ) رحلته المسمّاة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" استجابة إلى طلب أبي عنان سلطان بني مرين. فمن شعر أبي عبد الله:[282]

قصّتي في الهوى المدوّنة الـ | كبرى وأخبار عشقي المبسوطة
حجتي في الغرام واضحة إذ | لم تزل مهجتي بوجد منوطة

وإليك جزءا من إنشائه في هذا الفنّ مما كتب به إلى السلطان المريني

(279) نفح الطيب، 5/ 537. أزهار الرياض، 3/ 201.

(280) عنه انظر : الإحاطة ، ابن الخطيب 4/11-18 . نفخ الطيب، 5/240 , 464-471
كذلك : الأعلام 4/169 . جذوة الاقتباس، ابن القاضي، 2/444.

(281) انظر عنه: نفح الطيب، 5/ 526. أزهار الرياض، 3/ 201.

(282) نفح الطيب، 5/ 536.

المتوكّل على الله أبي عنان فارس ليهنؤه بإبلال وليّ عهده أبي زيّان من مرضه، فيقول:" أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعادته القدح المعلّى ولزاهر كماله التاجّ المحلّى . . ولا غرو إن كنت من العلياء درّتها المكنونة، فأسلافك الكرام هو جواهرها الثمينة، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان، وبجود جودهم تسنى ريّ الضمآن، وبتسهيل عدلهم وضحت شعب الإيمان، وأنت المنتقى من سمط جمانهم والواسطة في قلائد عقيانهم، عنك تؤثر سيرة الاكتفاء "[283].

وذكر المقّري في نفحه العلاّمة الشاعر محمد بن أحمد الهواري شمس الدين أبا عبد الله بن جابر الوادي الآشي الضرير (780هـ) [284] له مؤلفات وديوان شعر ومنظومات [285] فأورد له أمثلة من التورية بالكتب من ذلك خمسة أبيات موريا فيها بعشرين كتابا: [286]

عرائس مدحي كم أتين لغيره	فلما رأته قلن هذا من الأكفا
نوادر آدابي ذخيرة ماجد	شمائل كم فيهنّ من نكت تلفى
مطالعها هنّ المشارق للعلا	قلائد قد راقت جواهرها رصفا

(283) نفح الطيب، 5/534. حيث أمثلة أخرى قبلا وبعدا.

(284) نفح الطيب، 1/38، 2/664، 7/302. وادي آش أو وادي ياش أو وادي الأشات مدينة من أعمال غرناطة تقع على بعد 53 كيلو متراً في شماليها الشرقي. نفح الطيب، 1/ 149. الروض المعطار، 193. الحلة السيراء، 2/ 354. تاريخ الجغرافية والجغرافيين، 568. جمهرة أنساب العرب، 274؟. معجم البلدان تحت آش.

(285) بغية الوعاة، 1/ 34ـ35.

(286) نفح الطيب، 2/ 664 ـ 665. عن نماذج أخرى بالتورية بالكتب انظر: نفح الطيب، 7/344.

رسالة مدحي فيك واضحة، ولي   مسالك تهذيب لتنبيه من أغفى
فيا منتهى سؤلي ومحصول غايتي   لأنت أمرؤ من حاصل المجد مستصفى

ومن براعة ابن جابر الشعرية أنّه ورّى بأسماء سور القرآن الكريم بقصيدة من ستّة وخمسين بيتا [287] جعل أبياتها الثمانية الأخيرة في مدح الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم. وقد عارضها عدد من الشعراء والكتّاب شعرا ونثرا[288].

وهذا الأسلوب من التورية بالكتب وإن كان فيه إظهار التفنّن والمقدرة ولكن أيضا فيه كثير من المشقّة والتكلّف وهو لا يصحّ أسلوبا للكتابة، وهم لم يتّخذوه كذلك، إلاّ إذا صحّ أن يرد اسم كتاب أو جزء منه على طبيعته ينساب مع القلم من غير تصيّد أو تعنف. ونلحظ أنّهم أنفسهم لم يتخذوا هذا أسلوبا للكتابة إلاّ أنّه حدث لدى القليل وفي مناسبات محدودة لإظهار البراعة أو الجمال اللغوي في نوع من المداعبة والترف الأدبي أحيانا.

هكذا كان الاهتمام بالعلم ووسائله وكان منها الكتاب على أساس كريم فاضل أقامه الإسلام وبدونه لا يكون. والمجتمعات الإسلامية كانت صورا عملية لهذا الدين في كل مجال ومنها في سمت العلم والعلماء والكتب والمكتبات والدروس والحلقات كانوا يقومون بذلك ممتزجا بالحياة نفعا وسلوكا والتزاما لا يتم إلاّ بهذا اللون من البناء الرباني الكريم. والدعوة الآن إلى المسلمين أن يسلكوا هذا السلوك العملي الإنساني الرباني إن شاء الله تعالى.

---

(287) نفح الطيب، 7/ 323ـ326.
(288) نفح الطيب، 7/ 326ـ 343.

العناية بجمع الكتب
والمكتبات الخاصة في الأندلس

ابتنى الإسلام الحياة العلمية في المجتمع الإسلامي في بلدانه كافة على أسس فريدة مجيدة، مثل القضايا الأخرى في أحواله جميعا. وتميزت الحياة العلمية فيه بأوضاع وطبيعة وظواهر خاصة وهي كثيرة ووفيرة وممتدة، كان منها ظاهرة جمع الكتب والمكتبات الخاصة في أعصار وأمصار العالم الإسلامي الواسع كافّة. وكانت الأندلس على ذلك مثالا واضحا.

ازدانت بيوت الأندلسيين بالكتب، فاشتهرت كثير من المكتبات الخاصة للرجال والنساء، علماء ومتعلّمين، حتى إنّه كان لبعضهم جماعة خاصة من الوراقين وغيرهم يقومون باستنساخ الكتب.

فكان من البديهي أن تزيّن دار كلّ عالم - مهما كان ميدانه - بمكتبة فخمة ذات قيمة علمية كبرى وعناية فائقة بجمعها قد تعتبر أثمن ما في بيته، ينفع بها نفسه والآخرين. فإنّ الكثير منهم قد تميّز وعرف باقتنائه مكتبة كبيرة متخيّرة.

وهذا الأمر يرد لدى العديد من مراجعنا الأندلسية وغيرها عن العلم والعلماء والإنتاج والمؤلفات، كما يظهر بوضوح خلال هذا البحث.

ويقدّر - دون تردّد - بأنّ العديد من أهل العلم من الرجال والنساء، كانوا ممّن جمع الكتب واهتمّ باقتنائها، فكانت له مكتبة خاصة كبيرة مهمة، وإن لم تذكر المصادر هذا الجانب في ترجماتها بهم أو ضاعت هذه المعلومات.

فهناك العلماء الكبار الذين قد تكوّن مؤلفاتهم مكتبة، لا بدّ أن تكون

لهم مكتبات كبيرة أمثال يحيى بن يحيى الليثي(234هـ) وعبد الملك بن حبيب السلمي(238هـ) وبقيّ بن مخلد(276هـ) وابن وضاح (587هـ) وابن حزم (456هـ) وابن الخطيب (776هـ) وآخرين، وإن لم ترد في المصادر أخبار واضحة مشيدة بذلك. فإذا كانت بيوت عموم الناس غير المشهورين بالعلم قد احتوت على الكتب [289] في مكتبة صغرت أو كبرت تعتني بانتقاء الكتب واقتنائها فكيف بهؤلاء العلماء؟

ومن هؤلاء العلماء من لا تخلو ترجمته من إشارة لطيفة عابرة لهذا الأمر كأن تصفه بأنّه كان ضابطا لكتبه أو معتنيا بتنقيحها[290]. أو لعلّ وصف أحدهم بجمع الكتب انحصر على من اشتهر بهذه الصفة وفاق غيره.

وهذه الأسماء ذات العناية بجمع الكتب هم من العلماء الذين عرفوا بعلمهم ومؤلفاتهم أو ممن كان لهم بالعلم اهتمام واشتغل به.

وإنّ كتب التراجم ترجمت للعلماء والمشتغلين بالعلم تأليفا وتدريسا. وخلال ذلك أشارت إلى أخبارهم والتي كان منها جمع الكتب. وهي لم تترجم لمن كانت له مكتبة كسبب فريد.

من دراستنا لحالة المجتمع الأندلسي العلمية نرى أنّ احتواء مكتبة أمر عام، لم يكن شأن العلماء وحدهم - ورد ذكر ذلك عنهم أم لا - بل عموم

---

(289) أعلاه، 141 وما قبله وما بعده وإلى آخر الكتاب .

(290) جذوة المقتبس، 317. الصلة، 621. بغية الملتمس، 429. التكملة، 61. نفح الطيب، 2/104، 158، 599، 630، 3/ 149.

الناس ممّن لم يكن لهم مكان في كتب التراجم ـ لأنّه أمر عام ـ إلاّ لمن اشتهر منهم. وهذه الأمور تتضح أمام تصفّح الأمثلة الواردة، وترد في هذا البحث.

كان جمع الكتب وتكوين المكتبات معروفا بين أهل الأندلس، غدا ضرورة أصيلة وهواية منتشرة وكما ألفه الحكام والأمراء ـ حيث رأينا في الأمثلة السابقة ـ فقد عرفه العلماء، بل هو جزء ضروري من حياته، لو صحّ بغيره الاستغناء عنه فلا يصحّ بالنسبة إليه. فكان عامّا لدى جميع الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية وطبيعة أعمالهم وتفاوت مدخولاتهم، بين الرجال والنساء، ومكتبة في بيت أسرة هي لهم جميعا ومع ذلك فعديد من النساء اشتهرت بجمع الكتب.

ولعلّ شهرة البعض أتت من هذا الاهتمام بجمع الكتب أكثر من المكانة العلمية أو التأليف، بل ربما أتت من هذا الاهتمام فحسب. وتساق هنا بعض الأمثلة لإيضاح هذا الجانب من غير استقصاء لها فهي كثيرة وفيرة غزيرة.

ذكر ابن بشكوال في صلته عن عبد الله بن حيّان الأروشي[291]، نزيل بلنسية (487هـ = 1094م)، من أنّه "كانت له همّة عالية في اقتناء الكتب وجمعها. جمع من ذلك شيئا عظيما "[292].

---

(291) نسبة إلى قرية أروش من عمل قرطبة. فأصل سلفه من هناك. انظر: التكملة، ابن الأبار، 1/ 287.

(292) الصلة، 288؟

ويقدّم لنا ابن عميرة الضّبّي (599هـ) في بغيته زيادة في المعلومات عن الأروشي المتعلّقة بهذا الشأن. والضّبّي ينقل ذلك من كتاب تاريخي لأبي عبد الله محمد بن خلف الصدفي الأديب الشاعر والمؤرخ البلنسي المعروف بابن علقمة (428ـ 509هـ= 1037ـ 1115م)[293]. وعلى ذلك فإنّ ابن علقمة كان معاصرا للأروشي وبلديّه (من أهل بلنسية). ويرجح أنّ تاريخ ابن علقمة هذا هو كتابه القيم " البيان الواضح في الملم الفادح "، وهو مفقود، عثر على قطع منه[294].

فيقول الضبي: " إنّ ابن ذي النون صاحب بلنسية أخذ كتب الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، وذلك مئة عدل وثلاثة وأربعون عدلا من أعدال الجمال، يقدّر كلّ عدل منها بعشرة أرباع. وقيل إنّه كان قد أخفى منها نحو الثلث "[295]. ولهذه القصة مدلول.

وأورد أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي(703هـ = 1303م)، في كتابه " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة "[296]، حين الحديث عن أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي(569هـ = 1173م)، بأنّ أبا العباس هذا " كان محدّثا مكثرا ثقة ضابطا مقرئا مجوّدا حافظا للفقه ذاكرا لمسائله عارفا بأصوله متقدما في علم

---

(293) انظر: ترجمته في: التكملة، 1/ 411؟

(294) انظر: دول الطوائف، محمد عبد الله عنان، 251.

(295) بغية الملتمس، 344. كذلك: الحلل السندسية، شكيب أرسلان، 3/ 88. وابن ذي النون هو : القادر III يحيىٰ بن إسماعيل بن المأمون بن ذي النون.

(296) الذيل والتكملة، 1/ 225. كذلك: الإحاطة، 1/ 189.

الكلام عاقدا للشروط بصيرا بعللها حاذقا بالأحكام كاتبا بليغا شاعرا محسنا آنق أهل عصره خطا وأجملهم فيه منزعا. وكتب من دواوين العلم ودفاتره مالا يحصى كثرة وجودة وضبطا ". وذكر عنه أيضا أنّه كان "مقتنعا باليسير راضيا بالدون من العيش مع الهمّة العالية والنفس الأبية، على هذا قطع عمره، وهذا كان دأبه إلى أن فارق الدنيا ولم تكن همّته مصروفة إلاّ إلى العلم وأسبابه، فاقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطّه الرائق "(297).

وإنّ هؤلاء العلماء بالرغم من حاجتهم للوقت لاكتساب العلم والعكوف عليه تحصيلا وتأليفا وكذا تدريسا كانوا هم يقومون باستنساخ كثير من الكتب لمؤلفين آخرين، بجانب مؤلفاتهم - كما يشير النصّ السابق -بل وحتى في أسفارهم التي قد لا يكون طلب العلم هدفها الأول.

ثمّ إنّ كلّ ذلك كان يتمّ بجانب عمل يمارسه العالم يعتاش منه، سواء كان عملا حرا كتجارة وزراعة أو وظيفة، كالقضاء وغيره. وكانت للقضاء شروط: الفقه والعلم من ضمنها. ويبدو أنّ اشتغال العلماء بالتحصيل العلمي والتأليف والتدريس لم يكن عموما هو مصدر عيشهم إلاّ ما قد يكون من جرايات.

فيبدو من إنتاج هؤلاء العلماء واهتمامهم وكأنّهم متفرغون جزئيا أو كليا للعلم وخدمته بدوافع إيمانية خيرة برّة. وهذه الوضعية ترينا الهمّة العالية والسعي الحثيث وراء المعرفة وتبين دوافعها وجذورها العميقة، مما

(297) الذيل والتكملة، 1 / 229. الديباج المذهب، 49.

يؤكد المعنى الذي سبق ذكره: من أنّ طلب العلم في المجتمع المسلم والاهتمام به يمثّل أحد ظواهر هذا المجتمع وحضارته، التي ميّزها الإسلام وجعل مجتمعه يعتبر هذه الأمور جزءا من عقيدته، وأنّ حضارته وتأريخه وأمورا أخرى مرتبطة بهذه العقيدة وهي من ثماره، وعلى هذا الأساس تجب دراستها.

ولذلك كنّا نجد هؤلاء العلماء عند كلّ موقف تتطلّبه مصلحة الإسلام والمسلمين، حتى ميادين القتال والجهاد وسوح البذل والاستشهاد، فقد كان بينهم وبينها ألفة ونسب. وقد كان منهم من يتصدّرها كما يتصدّر مجالس العلم وحلقاته، فكلا الأمرين يصدران عن ذات النبع وينطلقان من روح واحدة[298].

ونجد في مؤلفات علمائنا تواتر الأخبار عن الاهتمام بتدوين العلم وطلبه حتى في السفر غير الموجه للعلم بل من أجل هدف آخر تغتنم فيه الفرصة للانتفاع العلمي. من ذلك ما يذكر صاحب كتاب " الذيل والتكملة "[299] حين يذكر أبا العباس أحمد بن أحمد بن خلف الحضرمي، من أهل إشبيلية المعروف بابن رأس غنمة(نحو643هـ = 1245م). فيقول ابن عبد الملك المراكشي بأنّ أبا العباس" رحل إلى المشرق في حدود الخمس والتسعين وخمس مئة مرافقا الشهيد أبا بكر بن أحمد الكناني.. . فأديا فريضة الحجّ ولقيا هنالك بقايا الشيوخ، فأخذا عن طائفة منهم. وقفلا إلى الأندلس واستصحبا فوائد جمّة وغرائب كتب لا عهد لأهل الأندلس بها

(298) انظر: أعلاه، ذكر عدة أحداث توضح هذا كله.

(299) الذيل والتكملة، 1 / 28، 29.

انتسخاها هنالك. وتوافقا على أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفيقه أو يقابله، استعجالا لتحصيل الفائدة ".

ويذكر ابن بشكوال في" الصلة "[300]عن أحمد بن محمد بن عبد الله بن قزلمان(429هـ = 1037م)، " الذي سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا "، بأنّه" جمع كتبا حسانا كثيرة النفع على مذاهب أهل السنّة، ظهر فيها علمه، واستبان فيها فهمه ". كما يذكر [301]مثل ذلك عن هشام ابن عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن الصابوني(423هـ= 1031م)، فيصفه بأنّه كان" دؤوبا على النسخ، جمّاعة للكتب، جيد الخط ".

أما أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يزيد بن محمد بن خبير بن عيسى اللخمي المعروف بابن الأحدب، من أهل إشبيلية(437هـ= 1045م)، فقد " كان رجلا صالحا، مقبلا على ما يعنيه، قديم الطلب جامعا للكتب والأصول لقي جماعة من الشيوخ فكتب عنهم وسمع منهم "[302].

ويذكر المقّري في نفحه [303] عن ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم(708هـ= 1308م)، الذي تولّى الوزارة لسلطان غرناطة محمد الثالث (المخلوع)، بأنّه" كانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب. جمع من أمهاتها العتيقة وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه ".

---

(300) الصلة، 45.

(301) الصلة، 650.

(302) الصلة، 528.

(303) نفح الطيب، 5/ 499.

وكان ذو الوزارتين كاتبا بليغا وشاعرا اشتهر بالأندلس ذكره، وقد " أحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع، وأفرط في اقتناء كتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها "(304).

ويذكر ابن بشكوال عن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن محمد بن سعيد الحديدي التّجيبي(428هـ= 1036م) من أهل طليطلة، بأنّه" جمع كتبا لا تحصى. وكان معظّما عند الخاصة والعامة، ورحل إلى المشرق وحجّ ولقي جماعة من العلماء "(305). كما يحدّثنا عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عوني بن محمد بن عوني المعافري (512هـ= 1119م) من قرطبة، فيصفه بأنّه" كان معتنيا بالعلم مشهورا بالمعرفة والفهم، كثير الكتب، جامعا لها، باحثا عنها "(306).

ومثل ذلك جاء في وصف أبي الحكم منذر بن منذر بن علي بن يوسف الكناني.(340ـ423هـ) من أهل مدينة الفرج بأنّه" كان رجلا صالحا قديم الطلب للعلم كثير الكتب راوياً لها موثّقا فيها "(307).

وهذا عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد ابن الفرضي الحافظ القرطبي المشهور (351ـ403هـ= 962ـ1013م) وصفه ابن بشكوال بأنّه" كان جمّاعا للكتب فجمع منها أكثر ما جمعه أحد من

---

(304) نفح الطيب، 5/504.

(305) الصلة، 219.

(306) الصلة، 571.

(307) الصلة، 624. الحلل السندسية، 2/76.

عظماء البلد " [308]كما وصفه بالمنزلة العلمية الواسعة الرفيعة إذ" جمع علما كثيرا في فنون العلم "[309].

وكما قال عنه مؤرخ الأندلس أبو مروان بن حيّان القرطبي(469هـ) بأنّه لم ير مثله بقرطبة من سعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة الرجال والافتنان في العلوم، إلى الأدب البارع والفصاحة المطلوبة، قلّما كان يلحن في جميع كلامه من غير حوشية مع حضور الشاهد والمثل[310]. كذلك" كان فقيها عالما في جميع فنون العلم، في الحديث وعلم الرجال وله تواليف حسان "[311].

وهذا أبو الخطاب العلاء بن أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم[312](421ـ454هـ = 1030ـ1062م) تحمّل ـ كأترابه ـ في رحلته العلمية إلى الشرق الإسلامي المشقّة الكثيرة، و" امتحن في رحلته بضروب من المحن لم تسمع لأحد قبله "[313]، " وأقام في رحلته

(308) الصلة، 253.

(309) الصلة، 252.

(310) الصلة، 252.

(311) الصلة، 252(نقلا عن أبي عمر يوسف بن عبد البر).

(312) بغية الملتمس، 429. وهو من أبناء عمومة العالم الحافظ الفقيه أبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي(456هـ= 1063م).

فأبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (438هـ)، والد أبي الخطاب العلاء، هو ابن عمّ الفقيه أبي محمد علي بن حزم؟، ولعلّه من أبناء العمومة. انظر: الصلة، 381. بغية الملتمس، 393. المغرب، 1/ 357. جذوة المقتبس، 273. نفح الطيب، 1/489، 3/156.

(313) الصلة، 445.

الكريمة ثمانية أعوام وتسعة أشهر وستة عشر يوما" [314] وقد" كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمّة العالية في طلب العلم، كتب بالأندلس فأكثر. ورحل إلى المشرق فاحتفل بالجمع والرواية ودخل بغداد "[315]. وهو الذي ذكر عنه ابن حيّان القرطبي: " أنّه جمع من الكتب الغريبة ما لم يجمعه أحد"[316]. وكلّ ذلك وسنّه يوم وفاته ثلاث وثلاثون سنة. وفي هذا إشارة واضحة ذات مدلول مهم إلى المستوى العلمي العالي العام الواسع الذي يتلقّى فيه الوليد العلم ويهيّأ له من أسبابه كلّ سبيل ويحفّ به وافر التشجيع ويغرس في نفسه عشقه للتلقّي والبذل له، فيقبل عليه وهو في النعومة، حتى ما ينفصل وما يرى الحياة بدونه، محبة ارتضعها مع محبة العقيدة الإسلامية وشريعتها وكل متعلقاتها تغذاها وليدا صغيرا ونمت معه وغدت كيانا يعيشه وطبيعة يتحرك بها وسمتا واضحا في حاله.

ولا بدّ من الإشارة والإشادة بإدراك المرأة الأندلسية المسلمة لهذه الأمور ودورها في تهيئة الجوّ الأسري الظليل في محضن التنْشئَة للصغار ومأوى الإنتاج في النضج ومرفأ النشر لمن استوى، زيادة إلى مشاركتها في ميادين أخرى، يبقى السابق معها طوال المهمات. ومع كل ذلك فقد اشتهر العديد من النساء بالعلم والتأليف وجمع الكتب ونسخها والعناية بها وامتلاك المكتبات بل واشتغلن العديد منهن ناسخات عرفن بذلك وتميزن به متفوقات. ومكانة المرأة المسلمة التي ارتضاها لها الإسلام معروفة، وارتفع

---

(314) الصلة، 445.

(315) جذوة، 298. الصلة، 444. بغية، 429.

(316) الصلة، 445.

بها إليها وامتازت بذلك من سائر شقيقاتها من أتباع الملل الأخرى من بنات حواء وهي مكانة لا تعرف في غير هذا الدين.

وكأنّ هذه الأمور: الاهتمام بجمع الكتب، والحفظ والاستيعاب، والتأليف كانت تسير متناسقة منسجمة. والكلّ يمارس بشغف وسائل كسب العلم وتحصيله لا يبالون ما ينفقون وما يتجشّمون من صعاب في السفر وتكاليف في الحضر، باذلين الصبر والجهد والسهر في طلبه وطول المعاناة في كسبه. حتى روي عن أحدهم قوله: " اليوم لي منذ أخدم هذه الكتب وأعانيها ستون سنة "[317].

وهكذا تتبين هذه الظاهرة العلمية في الحياة الإسلامية وخاصة أهلها تعبيرا عن عقيدة الإسلام وشريعته في تبنيه ذلك المجتمع الفاضل الذي أتى بكلمة الله ثمارا يانعة طيبة خيرة ستبقى مثالا فريدا يعشقه الإنسان ويسير نحوه ويبذل من أجله ويستعين الله ويدعوه لبلوغه إن شاء الله تعالى.

وهو أمل الإنسان في كل مكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ويلقى الله يوم الدين الذي باتباعه يظله الله تعالى يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله آمين والحمد لله رب العالمين ونسأله الهداية أجمعين.

---

(317) الصلة، 216.

عناية الحكام بالمكتبات في الأندلس

شاع العلم في الأندلس وغيره من بقاع العالم الإسلامي الواسع الكبير، وغدا الاهتمام به ـ تلقيا وبذلا وصلة وهضما واستنارة وسلوكا ـ سنة واضحة وسمة لازمة من سمات المجتمع المسلم، يتنافسون فيه ويبذلون لأجله ويعملون لنشره، قربة من الله تعالى وطلبة لرضاه وسعيا في حبه وأخذا بشرعه وعملا بكتابه، لإقامة المجتمع الإسلامي على الفضائل والهدى بعلم ومعرفة كما أراده الله وبيّنه بمواصفات حددتها القواعد العلمية والمنهجية الأمينة النزيهة والموضوعية الفاضلة التي لا يعرفها تاريخ العلم في غير الحياة العلمية الإسلامية ومن غير استثناء للأزمنة والأمكنة لأن الأمر كله من قبل ومن بعد يتعلق بلون البناء الإسلامي فردا وجماعة مجتمعا ودولة ليقيمه على أسس رفيعة تشهدها الحياة متحركة خيرة. وهذا البناء الفاضل لا يتوفر إلا بشريعة الله القائمة على الإيمان به والمتجهة إليه في كل حين ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾[البقرة :120] .

وكان الكتاب إحدى وأهم الوسائل لنشر هذا العلم وحفظه وتثبيته، وعلى هذا الأساس كانت العناية به واسعة من كل الناس وعلى أي مستوى وفي كل ميدان. فكانت عناية الحكام به كبيرة وواضحة تشجيعا وتوفيرا وإنفاقا، كما أكرموا أهل العلم وهيأوا لهم أسباب الإنتاج فوفروا لهم جوه المناسب للإنتاج والبحث كما شاركوا به هم الاتجاه العلمي الحي في المجتمع المسلم. وكان الكثير منهم علماء عرفوا بسعة آفاقهم واهتماماتهم الخاصة بكل ذلك وكانوا عموما لا يخلون من علم ومعرفة واهتمام به وحرص عليه وهو أمر معروف لدى الحكام المسلمين وإن تفاوتوا في ذلك بل إنّ منهم من

عرف بأمور علمية كان منها الاهتمام بجوانبه المختلفة ومنها المكتبات، دعوة وتوفيرا وإرشادا، والأندلس واحد من بلدان العالم الإسلامي في حضارته الثرة الوفيرة البيضاء. فكانت عنايتهم بالكتاب والمكتبات واضحة في كل العصور والظروف والأحوال وعلى اختلاف مستوياتهم العلمية يتبارون في ذلك ويتفاخرون ويدخرون كل إمكانية لهذا الأمر الكريم.

لقد اهتمّ الحكام في الأندلس خلال العصور بالعلم وأهله والمكتبات وشجّعوا عليها وبذلوا بسخاء لاقتناء الكتب من داخل الأندلس، كما أوفدوا إلى خارجها من يجلبها لهم. وشجّعوا ـ بمختلف الوسائل ـ العلماء والمؤلفين على الإنتاج والتأليف. فأقاموا المكتبات المتعددة الكثيرة المكثرة رغم تلك الظروف في إمكانية التحصيل ووسائل الاتصال والتوصيل والاتصال والسفر، مما يجعل هنالك من المقومات المدهشة التي وفرت ذلك النوع والمقدار في الإنتاج العلمي مما يعجز عنه في مثل الوقت الحاضر. وهو أمر يفهم في ظل العقيدة الإسلامية ويقام، وبغيره لا يكون. لكن هذه العقيدة تأتي بالأعاجيب المعجزة، إنّها شرع الله. وبذلك نفهم هذا التمايز والاستباق والسبق المشهود، رعاه الحكام في كل مكان وفي الأندلس كذلك.

فمنذ قيام الدولة الأندلسية بدأ هذا الجانب بالازدهار وليس على مثال سابق أو بقايا متوفرة بل على أساس جديد في نوعه وتأسيسه ابتكارا واضحا وإبداعا وافرا ونموا متحفزا متكاثرا وأنفق الحكام لذلك الكثير من الجهد والمال وخصصوا له الإمكانيات اللازمة والأشخاص الذين يقومون عليه ويوفرون مقتضياته ويجتلبون معداته ويرحلون لأجله. وفي عصر

الخلافة الأندلسية في القرن الرابع الهجري وما بعدها زهت الأندلس ازدهارا بالمكتبات والكتاب وبالإنتاج والمؤلفين والأعلام من النساء والرجال من أهل الأندلس أو من القادمين عليه وحيث يجد الكل الجو المناسب فالمجتمع المسلم لا يعرف حدود القومية الوطنية الضيقة التي ابتليت بها الأمم الأخرى وسرت إلى بلداننا في هذا العصر والأمل أن تنحسر وتنسحب وترحل في زمن غير بعيد إن شاء الله. ولدينا أخبار عن عديد من حكام الأندلس اهتموا بتوفير الكتاب وتشجيع أهله ولو أنّ أخبارا أخرى ضاعت في مؤلفات أتلفتها الأحداث ربما بعضها كان نسخا وحيدة وإن كنا نأمل ظهور أخبار في مؤلفات تأتي بها عملية التنقيب عن الكتاب الإسلامي في حفائر وأنقاض أو مخابئ ننظر ظهورها حينا بعد حين. وفي بلدان ظهر الكثير من هذا كما جرى في تركيا والمغرب والأندلس. وقبل عصر الخلافة لدينا بعض أخبار تتعلق بهذا الموضوع في بلد الأندلس. فأرسل عبد الرحمن الأوسط (الثاني، 206ـ 238هـ) العالم الشاعر أبا العلاء عباس بن ناصح الثقفي الجزيري (بعد 230هـ)، قاضي بلدة الجزيرة الخضراء وشذونة، إلى الشرق الإسلامي ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها. وهذا يجلب انتباهنا إلى نقطة مهمة تلك هي توكيل هذه الأمور لا باعتبارها وظيفة وحرفة أو مهنة إنما باعتبارها عملية كريمة يقوم بها من يقدر عليها بما توفرت له من مكنة علمية ومعرفة واهتمام ولذلك كان اختيار من يقوم بمثل هذه المهمات بأهلية واضحة وتحر موفق وحسن توجه مناسب لما يقوم به لا سيما في مثل هذه الأمور.

ويصف المقّري في نفحه في هذا الباب، أنّ الأمير محمد (238ـ

273هـ) بن عبد الرحمن الأوسط بأنّه كان" محبّا للعلوم عارفا بها. فلما دخل بقيّ بن مخلد (276) الأندلس بمصنّف ابن أبي شيبة وقرأ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه، وقام جماعة من العامّة عليه، ومنعوه من قراءته، فاستحضره الأمير محمد وإياهم، وتصفّح الكتاب جزءا جزءا حتى أتى على آخره، ثمّ قال لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، وقال لبقيّ: (انشر علمك وارو ما عندك)، ونهاهم أن يتعرّضوا له"[318]. وهذا يشير إلى المستوى العلمي للحكام المسلمين وحسن نظرهم وجمال تعاملهم، ما يعمل على إشاعة العلم وتكثير إمكانياته وتوفير أجوائه والعمل على صيانته علما وعملا منهجا واتجاها مكانة وازدهارا في جو طبيعي وصحي كريم، مما قد نفتقده في كثير من بلداننا وبلدان العالم أو في كافته رغم ما يدعى من مبادئ وترتفع من شعارات ويتباهى في لافتات عريضة لا تغني من الحق شيئا. فالإسلام وحده هو الذي يوفر الجو الطبيعي للحياة الإنسانية بكل جوانبها متجهة إلى الله رب العالمين، وكل ما عداه عاجز عنها لا يقود إلاّ إلى السوء ولا يوفر غير المنكر ويهبط بالإنسان إلى الضلال والحيوانية والوحشية. وبالإسلام وحده تتوفر الحضارة الإنسانية والكرامة الخيرة التي أرادها الله لبني الإنسان ولا يجدونها إلاّفي اتباعهم لهذا الدين.

عصر الخلافة

ويوم قدمت سفارة إمبراطور الدولة البيزنطية من القسطنطينية (إسلام بول

---

(318) نفح الطيب، 2/ 519.

= استنبول) إلى قرطبة سنة 336هـ (947م) لم يجد قسطنطين السابع الأرجواني ما يتقرّب به إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (300ـ350هـ) الخليفة الأندلسي خيرا من إهدائه بعض الكتب.

هكذا كان ماضينا الزاهر حيث كان العلم والاهتمام به جزءا من العقيدة الإسلامية وأساسا مفيدا قويا في بناء مجتمعنا يوم ذاك ونأمل أن يأخذ المسلمون اليوم بتلك المقومات والبوادر واضحة للتخلص من عوامل التخلف التي رمانا بها الأعداء من كل لون أصلاء وعملاء.

أمّا اليوم حاليا فالاهتمام بالعلم قليل جدّ قليل ومحصور حتى بين المتعلّمين، والدوافع إليه امتهان واحتراف ومنفعة في كثير من الأحيان إضافة إلى التباين بين دوافع التعلّم والسعي وراء المعرفة والعناية بما ينفع والالتزام بمقتضياتها والأخذ بأسبابها والوقوف في المواقع السليمة من المجتمع بالنسبة إلى أهله. والذي يشيع الأمل في النفس هذه الأيام ما نلمسه من علماء التزموا بالإسلام خير التزام اعطوا صورته الحقيقية قي كل ميدان أصلاء نبلاء وكرماء عليهم تقوم القواعد ويصدر الحكم ويرتفع البناء في معرفة الحق والتعرف على المستوى المتدني الذي يسلكه أناس انحرفوا عن جادة الخير وسمت العلماء كما عهدناهم ولا يغني عنهم تسميهم أو تزيينهم أو توليهم فالوعي الإسلامي أعطى للناس من الإلمام والمعرفة والنظر ما يميزون به لا تشغلهم أو تغفلهم أو تخدعهم كل المظاهر والمسميات والادعاءات وسيعود إن شاء الله للمسلمين كيانهم الأصيل وحياتهم النظيفة وعلمهم الفاضل في إنتاجهم ومؤلفاتهم وحياتهم.

والكتب والاهتمام بها سبب للعلم والمعرفة وثمرة لها، والأصل أن تنمو

لدينا الملكتان ولكيلا نعيش عالة بل نكون أهلا لحمل الإسلام واستمرار حضارته. وذلك مطلب اليوم وأمل المستقبل، لا بالنسبة إلى العالم الإسلامي فقط، فهي حاجة بشرية وضرورة إنسانية لأهل الأرض أجمعين من غير استثناء.

وفي أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر كانت وفادة أبو علي القالي (288 ـ 356هـ) إلى الأندلس سنة 330هـ فأوفد الناصر الأعيان والعلماء لتلقّيه قبل وصوله قرطبة.

الحَكَمُ الثاني

وأضخم مكتبة في الأندلس طرّا، في عصرها أو طوال العصور، هي المكتبة الرئيسية في قرطبة التي رعاها أمراء الأندلس وخلفاؤهم منذ أيام عبد الرحمن الداخل ثمّ الأوسط ثمّ ابنه الأمير محمد إلى الناصر فالحكم الثاني المستنصر بالله (350ـ 366هـ)، الذي أثراها أيّما إثراء. فكان يبعث بالتجار ويجعل له الوكلاء في الأمصار الإسلامية المختلفة يجلبون إليه الكتب، وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له. وهو الذي بعث بطلب كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، فأرسل هذا إلى الحكم المستنصر نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق[319].

وكان الخليفة الحكم المستنصر يكرم العلماء ويعلي منزلتهم مثل غيره. ويقترح على أهل العلم أو يطلب إليهم ويكلّفهم تأليف الكتب في الموضوعات الكثيرة كما فعل مع محمد بن حارث الخشني (361هـ)

---

(319) الحلة السيراء، 1/ 210.

صاحب كتاب" قضاة قرطبة وعلماء إفريقية " . ويذكر ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس بأنّ الخشني ألّف للحكم المستنصر " مئة ديوان . وقد جمع له في رجال الأندلس كتابا قد كتبنا منه في هذا الكتاب ما نسبناه إليه " .

ومحمد بن يوسف الوراق الملقّب بالتاريخي (363هـ = 973م) الذي ألّف للحَكَم ديوانا ضخما في" مسالك إفريقيا وممالكها " [320] وكتب أخرى .

وكان العديد من العلماء يؤلفون كتبهم بتوجيه من الحَكَم أو هم يؤلّفونها له وكان يفرح لذلك ويسرّ، ككتاب" الحدائق" لأحمد بن محمد ابن فرج الجيّاني، ومحمد بن عبد الله بن سيد (نحو 363هـ) الذي" بوّب المستخرجة للإمام المستنصر بالله رحمه الله "[321]. كذلك فعل أبو عمر ابن المكوى أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي (324ـ 401هـ)" كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت إليه رياسة العلم بها أيام الجماعة " [322] حيث "جمع للحكم أمير المؤمنين كتابا حفيلا في رأي مالك سمّاه كتاب الاستيعاب من مئة جزء، وكان جمعه له مع أبي بكر محمد بن عبيد الله القرشي المعيطي ورفع إلى الحَكَم فسرّ بذلك، ووصلهما وقدّمهما إلى الشورى "[323].

---

(320) نفح الطيب، 3/ 163 .

(321) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 73.

(322) الصلة، 22.

(323) الصلة، 23.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج القرطبي القنتوري (315ـ380هـ) فقد" اتصل بأمير المؤمنين المستنصر بالله رحمه الله وكانت له منه مكانة وخاصة. وألّف له عدّة دواوين واستقضاه على أستجّه ثمّ استقضاه على ريّة "[324].

وأبو محمد قاسم بن أصبغ البيّاني(244ـ340هـ) فقد درّس الخليفة الناصر لدين الله وأبناءه، منهم الخليفة الحكم المستنصر بالله، وله ألّف كتابه المجتنى (أو المجتبى) في الحديث الشريف.

وكذلك أبو عبد الرحمن مطرّف الغساني (377هـ) فقد ألّف للحكم كتابا عن كورة إلبيرة (غرناطة).

ويذكر المسعودي في مروج الذهب أنّه حين وصلت سفارة من الإفرنج (فيما وراء جبال البرت في الأرض الكبيرة، فرنسا) إلى بلاط قرطبة عام 328هـ (939م) أيام الخليفة الناصر لدين الله طلب ابنه الحكم المستنصر (وكان وليا للعهد) إلى السفير، الراهب غدمار، أن يضع له كتابا عن بلاد (أو ملوك) الإفرنج، أو أنّ الراهب غدمار ألّفه وأهداه إليه[325].

لقد كان اهتمام الحَكَم المستنصر بالله بالعلماء كثيرا يحثّهم على التاليف ويشجّعهم عليه ويكلّفهم به. وهو الذي كان" قبل ولايته الآمر وبعدها ينشّط أبا علي، ويعينه على التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام"[326].

وأبو علي القالي (288ـ356هـ) وافد بغداد صاحب التآليف الكثيرة

(324) تاريخ علماء الأندلس، 2/92.

(325) تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، 34.

(326) نفح الطيب، 3/ 75.

الذي صنّف للخليفة الناصر لدين الله ولابنه الحكم المستنصر بالله من بعده. وباسم الحكم" طرّز الشيخ أبو علي القالي كتاب الأمالي "[327] وعليه أكّد الحكم المستنصر بالله الاستمرار في تأليف كتابه" البارع" في اللغة (*)

ولم يكتف الحكم بذلك بل كان أحيانا يقترح الموضوعات ومنهج التأليف، مثلما حدث مع أبي بكر محمد بن حسن الزبيدي الإشبيلي (379هـ) في تأليفه" طبقات النحويين واللغويين". وبتشجيعه ألّف الزبيدي كتابه لحن العامة.

وكان هذا ديدن الحكم بالنسبة إلى عموم المؤلفين من الميادين كافّة. وما ذكر كان على سبيل البيان والتمثيل.

ولشدّة اهتمام الحَكَم بالعلم والإنتاج فيه كان يهيّئ للباحثين والمؤلفين الأسباب العلمية ويوفّر حاجتهم من المصادر فكانت أبواب المكتبة القرطبية التي رعاها الحكم ومن سبقه مفتّحة لهم جميعا، يتركهم ينتفعون بكنوزها داخل المكتبة وخارجها، يتركها لديهم بالانتفاع بها في مؤلفاتهم. ويبدو أنّ هذه المكتبة كانت تستقبل أهل العلم والمعرفة ليس للانتفاع بها في داخلها بل وللاستعارة خارجها، وربما على نطاق واسع.

ومما وصف به الحميدي الحكم بأنّه" كان حسن السيرة، جامعا للعلوم محبّا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار واشترائه لها بأغلى

---

(327) نفح الطيب، 3/72.

(*) حققه هاشم الطعان، بغداد.

الأثمان، ونفق ذلك عليه فحمل إليه "[328].

كذلك وصفه ابن الأبار بكونه" حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوفا بالعلوم حريصا على اقتناء دواوينها يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان. ونفق ذلك لديه فحملت من كلّ جهة إليه، والملك سوق، ما نفق فيها جلب إليها، حتى غصّت بيوته، وضاقت عنه خزائنه"[329]. وهكذا كان الحكم راعيا للعلم والمجتمع" مستجلبا للعلماء" من كلّ فنّ ويشهد مجالسهم يشجّعهم ويوجّههم" جمّاعا للكتب"، يبذلها للمؤلفين ويوسع عليهم. فهو نوع عال من تقدير العلماء وتشجيع العلم وتَهْيئَة الأسباب والإمكانيات بأنواعها كأسلوب مدرك وجادّ مخلص من التفرّغ العلمي في سبق بعيد ومثال فريد بشكل يدركه أصحاب الهمّة من أهل الفضل والتقوى.

"واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ما لم يجتمع لأحد قبله. ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحا عظيما خاصا بالمكتبة، افتنّ المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه"[330].

ويذكر ابن حزم القرطبي (384ـ456هـ) في كتابه جمهرة أنساب

---

(328) جذوة المقتبس، 13.

(329) الحلة السيراء، 1/200.

(330) دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 505.

العرب" إنّ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كلّ فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين فقط ".

وجاء في نفح الطيب بأنّ الحكم المستنصر" جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنّها كانت أربع مئة ألف مجلد، وأنّهم لمّا نقلوها أقاموا ستّة أشهر في نقلها، وكان عالما نبيها صافي السريرة "(331).

وكان الحكم كثير القراءة يعلّق على ما يقرأ وكانت لتعليقاته قيمة كبيرة عند العلماء، فهي" حجّة عند أهل العلم وعندنا لأنّه كان عالما ثبتا "، كما يقول الحميدي في جذوته.

ولقد كانت هذه الظاهرة لدى حكام الأندلس ـ وهي ظاهرة عامة في البلدان الإسلامية ـ متوافرة متوارثة. وهي تعبير عن وجهة هذا المجتمع وطبيعة بنائه، كما تعتبر استجابة لأسس مكوّنات هذا المجتمع وتلبية لرغباته ورغائبه.

بقية الحكام والمسئولين

ونجد لهذه الظاهرة في البحث الحالي أمثلة عديدة لغير الذين ذكروا من الحكام والمسئولين مثلما حدث للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (392هـ = 1002م)، حيث ألّف له الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن الرّبعي البغدادي (417هـ) عدّة كتب منها" الفصوص في الآداب

(331) نفح الطيب، 1/ 395.

والأشعار والأخبار" . وصاعد هذا هو غير سميّه الفقيه القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الطليطلي (420ـ462هـ) صاحب كتاب "طبقات الأمم" .

ورعاية العلماء من قبل الحكام وتشجيعهم على التأليف مألوف ومتوفّر في تاريخ الحضارة الإسلامية. وهذا يعتبر عناية والتفاتا وإدراكا لأهمية التفرّغ بل هو الاهتمام الكامل الذي قد لا نجد له مثيلا في أيامنا.

فكان اهتمام الحكام بالعلم وتوقيرهم للعلماء معروفا وخلقا مألوفا. وإنّ مثل هذه الصفات كانت أيضا من مستلزمات الحكم والسلطان، وهم أنفسهم كانوا على مكانة من المعرفة أو يعدّون من العلماء. ولذا عرفوا قيمة العلم ومكانة أهله. ولدينا في هذا أحداث كثيرة. ورأينا فيما سبق قصّة ابن التيّاني مع حاكم مرسية أبي الجيش مجاهد العامري 452هـ، التي تشير إلى اعتزاز العالم بعلمه وتوقير الحاكم له وإكبار الناس لكلّ ذلك.

وتلك الحال كما تدلّ على اهتمام الملوك بالعلماء وتقديرهم لهم وللصفات العلمية والخلقية والتزامهم بالسمت العلمي الذي أنبته الإسلام فهي تدلّ على مكانة العلماء وسموّ خلقهم واعتزازهم به مثلما يعتزّون بعلمهم أو يزيد. فالأول أساس لأنّه أيضا يحمل الآخرين على احترامهم واحترام الأخلاق والعلم الذي أظهروه والأصل الذي رباهم. ولذلك فقد علّق الحجاري على هذه الحال بقوله: " هكذا ينبغي أن تكون الملوك وكذا يجب أن تكون العلماء "[332].

فكان هؤلاء العلماء هم أنفسهم يصونون علمهم بأخلاقهم. من ذلك

---

(332) المغرب، 1/ 66.

ما نقله المقّري عن الإحاطة لابن الخطيب حين الحديث عن أبي محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حوط الله الأنصاري الحارثي، أنّه " كان فقيها جليلا أصوليا كاتبا أديبا شاعرا متفننا في العلوم ورعا ديّنا حافظا ثبتا فاضلا، درس كتاب سيبويه ومستصفى أبي حامد الغزالي، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ مشهورا بالعقل والفضل، معظّما عند الملوك، معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء، والمحافل الجمهورية، مقدما في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ".

أمّا اليوم فما دامت قد ضعفت تلك المعاني أو زالت لدى الكثير فلا نجد أثرا واضحا عند من لم يتزيَّ بهذا الزي لمثل هذا النهج عند الكثير من الحكام وكذا العلماء. ولكنّ العلماء المسلمين الملتزمين بأدب الإسلام وشريعته المحبين لله ورسوله الطالبين لرضاه في كلّ عصر ومن أيّ ميدان هم عين ذلك النموذج لأنّهم من ذات المنبت. لكنّ الفرق بين الماضي والحاضر أنّ الحكام عمومهم كانوا يكرمون العلماء المخلصين الملتزمين، واليوم بعمومهم يحاربون ويغدرون بهم ويحكمون بالقضاء عليهم.

فاعتبر تعلّق الحكام بالعلم وتقدير أهله وتشجيعهم له وكونهم هم من العلماء سنة ماضية في الحضارة الإسلامية وهكذا ستكون حين تتثبت هذه المعاني في النفوس وأمارات ذلك مقبلة إن شاء الله.

فيروي لنا المقّري في نفح الطيب عن الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري بأنّه كان " كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة، لم ير بعده مثله في رجال الأندلس ذاكرا للفقه والحديث، بارعا في الآداب، شاعرا مجيدا، وكاتبا

بليغا "[333].

ولقد كانت لأبي بكر المظفّر بن الأفطس محمد بن عبد الله بن محمد ابن مسلمة التّجيبي (460هـ = 1067م)، مكتبة فخمة احتوت على الكتب المنتقاة. وكان هو نفسه" كثير الأدب، جمّ المعرفة، محبّا لأهل العلم، جمّاعة للكتب، ذا خزانة عظيمة لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة. قاله ابن حيّان "[334].

لقد بذل ابن الأفطس الأموال لجلب الكتب من الأقطار. وكان أشدّ ملوك الطوائف شبها بالحكم الثاني المستنصر بالله من ناحية العلم والاهتمام به والعناية بأهله وجمع الكتب والسّخوّ لها.

ويروي صاحب النفح بأنّ ابن الأفطس هذا" ألّف في فنون الآداب كتابا في نحو ألف مجلدة "[335] وذكر البعض أنّه" في نحو خمسين مجلدا "[336]، وذلك رغم مسؤولياته.

وأجرى ابن بسام (542هـ) في ذخيرته ذكر ابن الأفطس وكتابه فقال "كان المظفّر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر اسمه أيضا بكتاب ابن المظفّر في خمسين مجلدا يشتمل على فنون وعلوم من مغازي وسير ومثل وخبر وجميع ما يختصّ به

---

(333) نفح الطيب، 1/ 232.

(334) التكملة، 1/ 393.

(335) نفح الطيب، 3/ 194، 380.

(336) نفح الطيب، 442.

علم الآداب أبقاه الله في الناس خالدا "[337].

وكان هذا الكتاب محتويا على كثير من العلوم، فهو أشبه بدائرة معارف، الموسوم بـ" التذكرة " والمعروف بـ" الكتاب المظفري " ، نسبة إليه.

وعن وزير المريّة، أيام حكم الصقالبة الطوائف الكاتب أبي جعفر أحمد ابن عباس (427هـ = 1035م) يقول المقّري في نفحه بأنّه" كان حسن الكتابة، جميل الخط، مليح الخطاب، غزير الأدب، قويّ المعرفة مشاركا في الفقه، حاضر الجواب، جمّاعا للدفاتر، حتى بلغت أربع مئة ألف مجلد، وأمّا الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عدّها لكثرتها "[338].

هكذا رأينا خلال هذه الجولة في الأندلس للعديد من القرون مشاهد زاهية فتانة من المستوى الرفيع المنبثق عن لون البناء للمجتمع المسلم واكتسى بسماته وسمته من عاش فيه، تجاوز الناس لاسيما علماؤهم إلى الحكام والمسؤولين الذين ليس فقط كانوا على مثال ذلك بل رعوا هذه الأمانة وأدوها. وكان العلم عند الجميع فريضة وجزءا من العقيدة وشعارا إسلاميا وسنة واضحة ومبرة وغرسا، آوى إليه أهله وقاصديه لم يبخل على أحد. فكان العلم مشاعا رفيع المستوى كريم المكانة عالي القدر لما التزم الناس به من سلوكه الذي رسمه الإسلام وتفردت به حضارته وجرى الاهتمام بكل ما يتعلق به ويصونه ويورثه وكان منه الكتاب والمكتبات التي تضافر الناس بها وإقامة المباني لها وملأت دورهم ومساجدهم تحفظ العلم بسمته الكريم يتناقله الناس من جيل إلى جيل بمواصفاته الخيرة الكريمة، إن

---

(337) الذخيرة، 2/398.

(338) نفح الطيب، 3/535.

شاء الله تعالى يتفهم المسلمون وهم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري هذه المعاني الفاضلة يتمثلون بها، وهذا هو الاحتفال الحق الذي يهمنا وندعو إليه أن نتمثل الإسلام في أنفسنا وننطلق به في الحياة داعين إليه وعاملين له ومجاهدين في سبيله حتى نلقى الله تعالى إن شاء الله اللهم آمين.

المصادر والمراجع

﴿ القرآن الكريم ﴾

* **جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ** ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ابن الأثير، الجزء الأول.

* **سنن الترمذي** (طبعة عزة عبيد الدعاس)، حمص، 1387هـ= 1967م، الجزء السابع.

* **سنن الدارمي** (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ، 255هـ) ، بعناية محمد أحمد دهمان، دمشق، 1349هـ، الجزء الأول.

* **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، 1375هـ = 1955م، الجزء الرابع.

***

* **الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال**، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1381هـ= 1961م.

* **الإحاطة في أخبار غَرناطة**، لسان الدين ابن الخطيب (تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1956)، الجزء الأول والثالث، وخطية الإسكوريال EL Escorial (إسبانيا) رقم 1673 (فهرسة الغريري M.casiri).

* **أزهار الرياض في أخبار عياض**، شهاب الدين أحمد بن حمد المَقَّري التِلِمْساني (القاهرة، 1041هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري

وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1361هـ= 1942م، الجزء الثالث .

* **الإسلام في أسبانيا**، د . لطفي عبد البديع (القاهرة، 1958م) .

* **الإسلام والحضارة العربية**، محمد كرد علي ، القاهرة، 1960م، الجزء الأول .

* **إعتاب الكُتّاب**، ابن الأبّار، تحقيق الدكتور صالح الأشتر، دمشق ، 1380هـ= 1961م.

* **أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب**، الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت، 1960م، الجزء الثاني .

* **أعمال الأعلام**، ابن الخطيب، تحقيق ليڤي بروفنسال، بيروت، 1956م .

* **اقتصفاء العلم العمل**، الخطيب البغدادي .

* **الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، القاهرة، الجزء الأول .

* **إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة**، ابن القِفْطي المصري (أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني، 646هـ) ، الجزء الأول والثاني والثالث .

* **أندلسيات** (*) ، المجموعة الأولىٰ ، بيروت، 1969م

هذه النجمة (*) إلىٰ جانب عنوان الكتاب تعني أنه للمؤلف الحالي .

* **البداية والنهاية**، ابن كَثير، ج13 .

* **برنامج شيوخ الرُّعَيْني**، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي. (592-666هـ) ، تحقيق إبراهيم شَبُّوح، دمشق ، 1381هـ = 1962م.

* **بُغْية المُلْتَمِس**، ابن عَمِيرة الضَّبّي، (القاهرة، 1967م).

* **بُغْية الوعاة، السيوطي** ، الجزء الأول.

* **البيان المُغْرِب**، ابن عِذاري، الجزء الرابع، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ، 1967م، الجزء الثالث، تحقيق ليڤي بروفنسال، مصورة على طبعة باريس، 1930م.

* **تاريخ الأدب الأندلسي**، الدكتور إحسان عباس، الجزء الأول (عصر سيادة قُرطبة) والثاني (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت، 1971م.

* **تاريخ الأندلس لابن الكَرْدَبُوس ووصفُه لابن الشبَّاط**، الدكتور أحمد مختار العَبَّادي ، مدريد، 1971م.

* **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (*)**، بيروت ، 1997م.

* **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** ، الدكتور حسين مؤنس ، مدريد ، 1386هـ=1967م.

* **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق**، محمد جمال الدين سرور، القاهرة، 1967م.

* **تاريخ الحكماء، ابن القِفْطي**. ويسمى إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

* **تاريخ العرب** (مُطوَّل)، فيليب حتي، بيروت، 1965، الجزء الثاني.

* **تاريخ علماء الأندلس**، الحافظ أبو الوليد ابن الفَرَضي، القاهرة، 1966 .

* **تاريخ غزوات العرب**، جوزيف رينو (ترجمة وتعليق شكيب أرسلان)، بيروت، 1966م.

* **تاريخ الفكر الأندلسي**، جنثالث، بالنثيا، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955م.

* **تاريخ مدينة دمشق**، ابن عساكر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.

* **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت، 1962م.

* **التِّبْيان** (مذكرات الأمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس بن حَبُّوس بن زِيري، آخر أُمراء غَرناطة أيام الطوائف) ، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، 1955م.

* **تذكرة الحُفّاظ**، الحافظ الذهبي (مصورة في بيروت عن طبعة الهند)، الجزء الثالث والرابع.

* **ترتيب المدارك**، القاضي عِياض (تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، بيروت، 1384هـ=1965م) ، المجلد الثاني.

* **التعريف بابن خَلدون ورحلته غرباً وشرقاً**، ابن خَلدون (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1370هـ=1951م).

* **التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبّار (طبعة العطار، 1375هـ = 1956م) ،

الجزء الأول والثاني.

* **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمْله** ، أبو عمر يوسف ابن عبد البر (طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة) ، القاهرة ، الجزء الأول والثاني.

* **جذوة المُقْتَبِس** ، الحُمَيْدي ، القاهرة، 1966م.

* **جمهرة أنساب العرب**، ابن حَزْم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1956م.

* **الحركة الصليبية** ، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، 1963م)، الجزء الأول.

* **الحضارة الإسلامية في الأندلس** وأثرها علىٰ الحضارة الأوروبية (*) ، (بيروت ، 1969م) .

* **الحُلَّة السِّيَراء، ابن الأبار**، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة ، 1963م، الجزء الأول والثاني.

* **الحُلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية** ، شكيب أرسلان، القاهرة، 1358هـ = 1939م، الجزء الثاني والثالث.

* **خَرِيدة القَصْر وجَريدة العصر**، العماد الأصفهاني ، القسم الرابع، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، 1964م، الجزء الأول والثاني.

* **دول الطوائف**، محمد عبد الله عنان، القاهرة ، 1389هـ = 1969م.

* **دولة الإسلام في الأندلس**، محمد عبد الله عنان ، القاهرة، 1969م، الجزء

الأول والثاني.

* **الديباج المُذْهَب في أعيان المَذْهَب**، ابن فَرحون، القاهرة، 1351هـ.

* **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ابن بسام الشَنْتَريني ، القسم الثاني، (مخطوطة المتحف العراقي– بغداد ، رقم 1587هـ) – المطبوعة قسم 2/1، 2/2.

* **الذيل والتكملة**، ابن عبد الملك الأنصاري، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت، 1965م، الأجزاء الرابع والخامس، والجزء الأول تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، بيروت، بدون تاريخ.

* **الروض المِعْطار في خبر الأقطار**، ابن عبد المنعم الحِمْيَري ، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، وطبعة بيروت الكاملة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ط2، 1984م.

* **روضة التعريف بالحب الشريف**، ابن الخطيب، تحقيق محمد الكَتّاني، بيروت.

* **سير أعلام النبلاء**، الحافظ الذهبي، ترجمة ابن حزم، تحقيق سعيد الأفغاني ، بيروت ، 1389هـ= 1969م.

* **شذرات الذهب**، ابن العماد الحنبلي، الجزء الثالث.

* **الصلة**، ابن بَشْكُوال، القاهرة، 1966م.

* **طبقات الشافعية الكبرىٰ** ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُّبْكي (771هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود

محمد الطناحي ، القاهرة 1383هـ = 1968 ، الجزء السادس.

* **العِبَر في خَبَر من غَبَر**، الحافظ الذهبي، الكويت، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ج1 (1960م) ، ج4 (1963م) ، ج3 تحقيق فؤاد سيد، 1961م.

* **عصر المرابطين والموحدين**، محمد عبد الله عنان، القاهرة، الجزء الأول والثاني.

* **فهرسة ابن خير** (الطبعة الجديدة المنقحة على طبعة قديرة وربيرا ، بيروت – بغداد) ، 1382هـ = 1963م.

* **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية** ، ابن حارث الخُشَني (طبعة العطار) القاهرة، 1972م.

* **لسان الدين ابن الخطيب**، محمد عبد الله عنان (القاهرة ، 1388هـ = 1968م).

* **مجالي الإسلام**، حيدر باقّات، ترجمة عادل زُعَيْتر ، القاهرة، 1956م.

* **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، أبو الحسن النُّباهي (نشر ليڤي بروفنسال ، القاهرة ، 1948م).

* **المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب**، ابن دِحْية الكلبي، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، القاهرة ، 1954م.

* **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، الجزء الخامس.

* **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، الجزء الثاني والخامس والثالث عشر.

* **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصَّدَفي**، ابن الأبّار، القاهرة، 1387هـ = 1967م (ضمن المكتبة الأندلسية).
* **المُغْرِب في حُلىٰ المَغْرِب**، ابن سعيد الأندلسي (تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، 1964م).
* **المُقْتَبِس من أخبار أهل الأندلس**، القسم الأول من الجزء الثاني، ابن حيان القرطبي، خطية مصورة قام بها J.V. BERMEJO (مدريد ، 1999).
* **المُقْتَبِس من أنباء أهل الأندلس**، ابن حيان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، بيروت، 1393هـ = 1973م (القسم الثاني من الجزء الثاني).
* **المُقْتَضَب من كتاب تحفة القادم**، ابن الأبّار، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة 1957م.
* **المقدمة، ابن خلدون** ، (دراسة وتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي)، القاهرة ، 1387هـ = 1967م ، الأجزاء 4,3,1 .
* **المكتبات في الإسلام** ، الدكتور محمد ماهر حمادة، بيروت، 1390هـ = 1971م.
* **المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية**، ربيرا، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد الرابع ، القسم الأول والمجلد الخامس ، القسم الثاني .
* **نَفّاضة الجُراب في عَلالَة الاغتراب** ، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، القاهرة، الجزء الثاني.

* **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقَّري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1968م، الأجزاء 7,5,4,3,2,1.

* **الوافي بالوفيات**، خليل بن آيبك الصَّفَدي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الأجزاء 7,5,4 ، 1389هـ = 1969م، إصدار جمعية المستشرقين الألمان، بيروت.

* **الوافي بالوفيات**، مخطوطة المكتبة المركزية بجامعة بغداد، الجزء الثامن.

* **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1968م، الأجزاء 7,4,3,2,1.

* Andalusian Diplomatic RELATIONS With Western Europe during the Umayyab period, (*) Beirut, 1970.

للمؤلف

قائمة بالمؤلفات : كتب (تأليف وتحقيق)، بحوث باللغة العربية، الانجليزية والإيطالية. عدا المقالات المنشورة في الصحف والمقالات في العديد من البلاد العربية، لاسيما الخليجية وبالذات في دولة الإمارات. يضاف إليها مئات الأشرطة (كاسيت وفيديو).

* إطروحة الدكتوراه منشورة كتاباً بالإنجليزية بعنوان :–
"ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD " - Beirut, 1390 (1970)

والنسخة العربية تحت الطبع (المجمع الثقافي) بعنوان :

"العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المُدَّة الأموية"

* تحقيق ودراسة لسفْر من كتاب **المُقْتَبس في أخبار بلد الأندلس**، للمؤرخ الكبير إبن حَيّان القرطبي (377-369هـ)، بيروت (1965م). يتحدث هذا الجزء من المقبس عن خمس سنوات (360-364هـ = 971-974م) من أيام الحكم الثاني، المستنصر بالله (350-366هـ = 961-976م).

ونُشر هذا الجزء على نسخة منقولة عن الأصل، وقد فُقد الآن كلاهما. ولديّ صورة للمخطوط المنقول (Microfilm). فكان نَشر هذا الجزء من المقتبس انقاذاً له من الضياع الأبدي.

* تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا من كتاب : « **المسالك والممالك** » ، للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبَيْد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، 406-487هـ) . ظهر هذا النص تحت عنوان: **جغرافية الأندلس وأوروبا**، بيروت (1387هـ= 1968م).

* **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة** – دار القلم، دمشق، 1997م.

* **تاريخنا من يكتبه؟** القاهرة، 1997م.

* **نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي**، دار ابن كثير ، بيروت، 1999م.

* **أضواء على الحضارة والتراث** – الكويت، 1987م.

* **مع الأندلس لقـاء ودعــاء** ، بيــروت، 1980م . (رواية لزيارة الأندلس بصحبة نخبة من طالبات جامعة الإمارات العربية المتحدة إلى الآثار الأندلسية).

* **ابن زيدون السفير الوسيط**، الكويت، 1987م.

* **العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة** (القسطنطينية) ، 2003م (المجمع الثقافي) ، أبوظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة.

* **هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها)**، 2003م . (المجمع الثقافي) ، أبوظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة.

* **السيرة النبوية، منهجية دراستها واستعراض أحداثها**، دار ابن كثير، بيروت، 1999م.

* **تاريخ الموسيقى الأندلسية (أصولها، تطورها، أثرها على الموسيقى الأوروبية)**، بيروت، 1969م.

* **الحضارة الاسلامية في الأندلس (أسسها، ميادينها، تأثيرها على الحضارة الأوروبية)**، بيروت، 1969م.

* **أندلسيات** (جزآن) – مجموعة بحوث أندلسية، بيروت ، 1969م. وقد تم إضافة بحوث كثيرة جعلتهما جزأين كبيرين، والكتاب جاهز للطبع.
* **الكتب والمكتبات في الأندلس** (جاهز للطبع).
* **الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي** (جاهز للطبع)، وهوو هذا الكتاب.
* **جوانب من الحضارة الإسلامية** ، بيروت، 1979م.
* **محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها**، الكويت، 1987م.
* **العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**، تحقيق (تحت التجهيز).

يبدو أنه الكتاب الوحيد في تراثنا عن موضوع المدفعية النظرية والتطبيقية والتعليمية. وفي الكتاب نحو خمسين رسم عن المدافع وأجزائها وأدائها. ولديّ فلم المخطوطة (Microfilm).

هذا الكتاب ألفه بالإسبانية في تونس (مورسكي أندلسي هارب من ملاحقات محاكم التفتيش) : الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي، المعروف بالربّاش. ترجمه في تونس إلى العربية زميله ومثيله ترجمة علمية فنية خبيرة، المورسكي الأندلسي، ترجمان سلاطين مراكش: أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي المعروف بشهاب الدين أو بالشهاب الحجري وآفوقاي. وأتّمّ ترجمته في 10 ربيع الثاني 1048هـ (1638م).

* **زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان** (بن إسماعيل) ، يعد للتحقيق، ابن العياشي: أبو عبد الله محمد بن العياشي (1139هـ = 1726م) ، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم : د 2152 (ولدي صورتها).

* **الدليل السياحي الأندلسي** (تحت الإعداد : كتاب مزود بالصور الملونة عن الأندلس وحضارته العمرانية ومواقعها، يفيد كل سائح لاسيما العربي، ويمكن ترجمته إلى اللغات كافة).

* **نصوص تاريخية أندلسية** (مجموعة نقول من كتابي: **المقتبس والمتين** (المفقود)، للمؤرخ إبن حيان القرطبي، مما لم يرد في المطبوع من **مقتبسه**. وتُكَوِّن هذه النصوص مجلداً كبيراً، وهو تحت الإعداد.

* **دراسات اجتماعية وحضارية** ، وهي مكونة من عشرات البحوث والمقالات منشورة في المجلات والصحف العربية، لاسيما في دولة الإمارات.

* عشرات المقالات والبحوث والمقابلات المنشورة في كثرة من المجلات العلمية والنشرات والصحف في العديد من البلاد العربية ومنها الخليجية وبالذات في دولة الإمارات العربية المتحدة.

* مجموعة بحوث منشورة في عدة مجلات باللغة الإنجليزية والإسبانية والإيطالية ، تحت عنوان (Studies on Andalusian History)، وهي :

* "INTERMARRIAGE BETWEEN ANDALUSIA AND NORTHERN SPAIN IN THE UMAYYAD PERIOD" The Islamic Quarterly (published by "the Islamic Cultural Center", Regent.s Lodge 146 park road, London N.W. 8,England) ,

Vol. XI, Nos. 1/2, 1387/1967.
* "AL- TURTUSHI THE ANDALUSIAN TRAVELLER, AND HIS MEETING WITH POPE JOHN XII" The Islamic Quarterly, Vol. XI, Nos. 3/4, 1387/1967.

ثم نشر بالإيطالية في :

"RIVISTA STORICA ITALIANA", NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. 1, 1967, PP.164-173.

* نقد (REVIEW) ، لكتاب :

* "A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN, MONTGOMERY WATT", The Islamic Quarterly, Vol. X, Nos. 3/4, 1386/1966.
* "POLITICAL RELATIONS BETWEEN THE ANDALUSIAN REBELS & CHIRISTIAN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly, Vol. X, Nos. 3/4, 1386/1966.
* "CHIRISTIAN STATES IN NORTHERN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly, Vol. IX, Nos. 1/2, 1385/1965.
* "POLITICAL RELATIONS OF ANDALUSIAN REBELS WITH THE FRANKS DURING THE UMAYYAD PERIOD" The Islamic Quarterly, Vol, XII Nos. 1/2, 1388/1968.
* "DIPLOMATIC RELATIONS BETWEEN ANDALUSIAX AND ITALY DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly, Vol. XII, No. 3, 1388/1968.

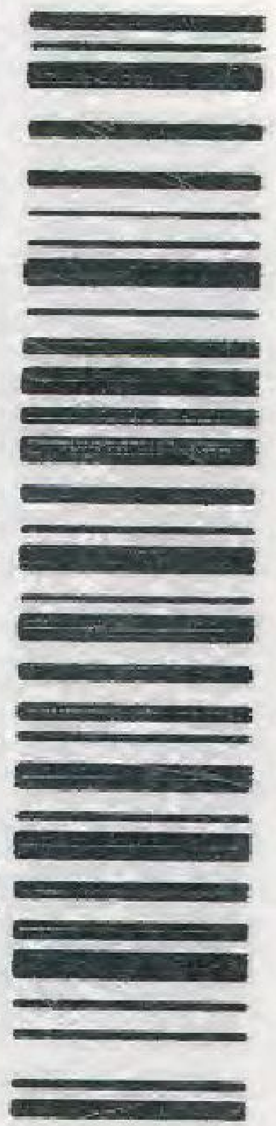
ونشر بالإيطالية في :

RIVISTA STORICA ITALIANA (Napoli, Italy), 1967, anno, LXXIX, fasc.1.
* "IBRAHIM IBN YAQUB AL - TURTUSHI, ANDALUSIAN TRAVELLER" The Islamic Culture (Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad - Deccan, India) Vol. XL, Nos. 1/2, Jan. 1966.
* "ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH CHRISTIAN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD" Journal of the Pakistan Historical Society)Karachi 5, Pakistan), Jan, 1966, VoL XIV, pt 1.
* "THE ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH THE

VIKING DURING THE UMAYYAD PERIOD" Hesperis - Tamuda (Rabat, Morocco) VoL. III, 1967.
* "THE MORISCOS IN THE ANDALUSIAN REFERENCES AND MANUSCRIPTS" (In press).

هذا الكتاب

هذه الدراسة في الحضارة الإسلامية عموما، والأندلسية منها خصوصا- أحد مواطنها المترامية - تتناول ظواهر متعددة لا سيما الظواهر العلمية، التي تتعين وتتعلق بالعلم والعلماء وطاقتهم وأسلوبهم وإنتاجهم. وهي تكشف عن وجه من وجوه الحضارة الإسلامية وتهدف إلى تبيان حقيقتها وتعمل للتعرف على إطارها الأصيل الجاد وصورتها الوضيئة وحدودها الإنسانية الواسعة. ولا تقوم هذه الدراسة على تعداد وذكر الجوانب العلمية وإنتاجها وأعلامها مجردة، لأن ذلك ثمرة ونتيجة وصورة لنوعية المقومات الحضارية في المجتمع المسلم بل هي ترد ذلك كله إلى الأصل الذي أنبتها. فهي أوسع من ذلك كله وأوعى لها في آفاقها وشمولها وأعمق منها في أغوارها وجذورها الراسخة. إنها تعتني باستجلاء أثر الإسلام في كل خطوة حين كان المجتمع المسلم ملتزما بالإسلام - فردا وجماعة، ومجتمعا ودولة - وبيان أنّ ذلك كلّه مرتبط بالإسلام عقيدة وشريعة. وبذلك نتعرّف على الصور الإسلامية والحياة من خلال حال المسلمين ونطلع عبر المجتمع المسلم على الحياة العلمية بأعرافها وظواهرها وقيمها ومنهجيتها، بالأمثلة والوقائع والشواهد القولية والفعلية، وإن كانت لنا الثقة بالشواهد القولية وحدها لأنّ نوعية المجتمع المسلم التقي لاسيما علماؤه كانوا يتحوّبون فيما ينوون ويقولون، بله ما يفعلون.





هيئة أبوظبي للثقافة والتراث-المجمع الثقافي
Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage
Cultural Foundation
ص.ب : 2380 ـ هاتف: 97126215300+
أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة
P.O. Box: 2380 Abu Dhabi, U.A.E.
Tel.: +971 2 6215300, Email:nlibrary@cultural.org.ae
www.cultural.org.ae



السعر 20 درهما